أولاً :

التعاون والتعامل مع ولاة الأمر

أ - من هم ولاة الأمر؟

ولاة الأمور هم بعد الله تعالى حفظة البلاد ، وأمراء العباد ، هم وجه الأمة ، وعنوان الدولة ، وحرّاس البشرية ، إن صلحوا وأفلحوا ، واجتهدوا ونصحوا ، وعدلوا وبذلوا ، وصدقوا وجَمُلُوا ، جملت بهم الشعوب ، وهتفت بهم القلوب ، وأضاءت بهم الدروب ، إن حسنت منهم النوايا كانت أعمالهم مرايا ، وإن ساءت مقاصدهم ، عظمت مفاسدهم .

هم القادة والسادة ، وأرباب الريادة ، أمة بلا قائد سفينة بلا ربان ، وباخرة بلا قبطان ، وبحور هائجة بلا شطآن ، وميدان رحب للشيطان ، وشعوب بلا أمير ؛ شعوب ضائعة ، وفئام متصارعة ، تعظم البلوى ، وتسود الفوضى ، ويعم الدمار ، وتحدق الأخطار ، ويستأسد الأشرار ، ويعربد الفجار . لا خوف يردع ، ولا نظام يمنع ، ولا جبار يخضع ، وكذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم : ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ (١) .

﴿ **لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (٢) .

إن الأمة تولد ميتة إذا كانت بلا إمام ولا زمام ولا أحكام ، فالولاة هم صمام الأمان ، وحراس البلدان ، ويزع الله بهم ما لا يزع بالقرآن .

إن لكل أمة من الكائنات ، وفئة من المخلوقات قائداً يقودها ، وملكاً

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .
(٢) الأنفال : ٦٣ .

يسوسها ، الأسود في عرينها ، والصقور في جبالها ، والنسور في تلالها ، والطيور في وكورها ، والنحل في خلاياه ، والنمل في زواياه لها جميعاً قواد دائمة ، وملوك حاكمة ، فكيف بأهل العقل والبيان ، والمنطق واللسان ، والسيف والسنان ، والأوصياء على منهج الديان ، وطاعة الرحمن ، والرقي بالإنسان .

وما كتب لكثير من الأمم الرقي والتقدم إلا حينما أحسنوا اختيار ولاتهم ، وانتقاء قوادهم ، فتعاونوا معهم ، وشدوا من أزرهم ، وأتمروا بأمرهم ، وقد أولى الإسلام هذا الأمر كبير العناية ، وجميل الرعاية ، فحَفَلَ الكتاب والسنة بآثار وأخبار ، وأحكام وآداب ، وقواعد وأخلاق ، وبيان وتفهيم ، ونصح وتقويم ، مما يسر النفس ، ويبهج الفؤاد ، ويمتع الخاطر ، ويسعد الناظر ، ويشرح الصدر ، ويجلي الأمر ، في كل ما يتعلق بولاة الأمر .

وقد وردت تعريفات عدة لأولي الأمر الذين ذكروا في قوله جل وعلا : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [١] ، فمن أشهرها أنهم الأمراء ، وقد قال بهذا القول جمع من السلف منهم أبو هريرة وابن عباس والطبري والنووي الذي قرر أنه قول جمهور السلف والخلف [٢] .

ومن أشهر الأقوال في ذلك وهو ما نميل إليه أن أولي الأمر هم كل من ولي شيئاً من أمور المسلمين من أمراء وعلماء وقضاة وغيرهم .

---

(١) سورة النساء : ٥٩ .

(٢) انظر تفسير الطبري (٨ / ٥٢) وشرح النووي على صحيح مسلم (١٢ / ٢٢٣) .

قال النووي : « المراد بأولي الأمر من أوجب الله طاعته من الولاة والأمراء ، هذا قول جماهير السلف والخلف من المفسرين والفقهاء وغيرهم ، وقيل : هم العلماء ، وقيل : هم الأمراء والعلماء . . »[١] .

وقال الحافظ بن كثير : « والظاهر والله أعلم أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء »[٢] .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : « هم الذين يأمرون الناس ، وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة وأهل العلم والكلام ، وكل من كان متبوعاً فإنه من أولي الأمر »[٣] .

ولشيخنا – رحمه الله – كلام جميل في تعريف ولاة الأمور ، فاستمع إليه يقول : « وقد قال الأئمة : إنَّ أولي الأمر صنفان : العلماء والأمراء . وهذا يدخل فيه مشايخ الدين ، وملوك المسلمين : كل منهم يطاع فيما إليه من الأمر ، كما يطاع هؤلاء بما يأمرون به من العبادات ، ويرجع إليهم في معاني القرآن والحديث والإخبار عن الله ، وكما يطاع هؤلاء في الجهاد، وإقامة الحد ، وغير ذلك مما يباشرونه من الأفعال التي أمرهم الله بها »[٤] .

كما قال – رحمه الله – : « فقصة إبراهيم في العلم بالحجة والمناظرة لدفع ضرر الخصم عن الدين ، وقصة يوسف في العلم بالسياسة والتدبير

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٢ / ٢٢٣) .
(٢) تفسير ابن كثير (١ / ٥١٨) ط الحلبي.
(٣) الفتاوى : ٢٨ / ١٧٠ .
(٤) الفتاوى : ٣ / ٢٤٩ – ٢٥٠ .

لتحصيل منفعة المطلوب ، والأول : هو العلم الذي يدفع المضرة عن الدين ، ويجلب منفعته ، والثاني : علم بما يدفع المضرة عن الدنيا ويجلب منفعتها ، أو يقال : قصة إبراهيم في علم الأقوال النافعة عند الحاجة إليها ، وقصة يوسف في عمل الأفعال عند الحاجة إليها »[١] .

ويقول الشوكاني بعد قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ** .. ﴾ : « لما أمر سبحانه القضاة والولاة إذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالحق ، أمر الناس بطاعتهم ها هنا ، وطاعة الله عز وجل هي امتثال أوامره ونواهيه ، وطاعة رسوله ﷺ هي فيما أمر به ونهى عنه . وأولو الأمر : هم الأئمة والسلاطين والقضاة وكل من كانت له ولاية شرعية لا ولاية طاغوتية ، والمراد طاعتهم فيما يأمرون به وينهون عنه مالم تكن معصية ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الله كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ . وقال جابر بن عبد الله ومجاهد : إن أولي الأمر هم أهل القرآن والعلم ، وبه قال مالك الضحاك . وروي عن مجاهد أنهم أصحاب محمد ﷺ . وقال ابن كيسان : هم أهل العقل والرأي ، والراجح القول الأول »[٢] .

وقال الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي : « وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم الولاة على الناس من الأمراء والحكام والمفتين ، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم طاعة لله ، ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط أن لا يأمروا بمعصية ، فإن أمروا بذلك ؛ فلا طاعة

---

(١) التفسير الكبير : ٤/٢٠٣ .

(٢) فتح القدير للشوكاني ، جـ ١ ، ص ٦٠٧ .

لمخلوق في معصية الخالق .

ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم ، وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله ، ومن يطعه فقد أطاع الله ، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية »[١] .

وهذا هو رأي سماحة الشيخ ابن باز – رحمه الله – سار فيه على نهج عددٍ من العظماء والعلماء والمحققين قبله .

وهو الذي يهمنا من تلك الآراء والتعريفات جميعاً فبناءً عليه مضى الشيخ في مسيرته العلمية والدعوية ، ثم إننا بصدد الحديث عنه – رحمه الله – فالذي يهمنا هنا هو معرفة رأيه في المقام الأول ، وهو ما أشرنا إليه في الأسطر الماضية ، وذلك يظهر جلياً في محاضرات الشيخ ومواعظه وفتاويه ، حيث كان دائماً يمزج بين هؤلاء الأصناف من أمراء وعلماء ودعاة ، وانظر مثلاً إلى قوله : « وإن مسئولية ولاة الأمور من قادة وعلماء ومفكرين مسئولية عظيمة »[٢] .

وانظر إلى جواب الشيخ عن سؤال حول هذا الأمر ، وهو نص في الموضوع ، سئل – رحمه الله – : ما المراد بطاعة ولاة الأمر في الآية ؟ هل هم العلماء أم الحكام ولو كانوا ظالمين لأنفسهم وشعوبهم؟

فقال : « يقول الله عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ**

---

(١) تفسير ابن سعدي (٢ / ٨٩) ، ط . السعدية .

(٢) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز (٢ / ٣٦٨) ، وسوف نكتفي فيما بعد بكلمة (الفتاوى) .

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[١] أولو الأمر هم العلماء ، والأمراء أمراء المسلمين وعلماؤهم يطاعون في طاعة الله إذا أمروا بطاعة الله وليس في معصية الله .

فالعلماء والأمراء يطاعون في المعروف ؛ لأن بهذا تستقيم الأحوال ويحصل الأمن وتنفذ الأوامر وينصف المظلوم ويردع الظالم ، أما إذا لم يطاعوا فسدت الأمور ، وأكل القوي الضعيف – فالواجب أن يطاعوا في طاعة الله في المعروف سواء كانوا أمراء أو علماء – العالم يبين حكم الله والأمير ينفذ حكم الله ، هذا هو الصواب في أولي الأمر هم العلماء بالله وبشرعه ،وهم أمراء المسلمين عليهم أن ينفذوا أمر الله ، وعلى الرعية أن تسمع لعلمائها في الحق ، وأن تسمع لأمرائها في المعروف »[٢]

ويقول – رحمه الله – : « فالواجب على قادة المسلمين من العلماء والأمراء وغيرهم الاهتمام بكل مصيبة تحل أو نكبة تقع ، وتذكير الناس وبيان ما وقعوا فيه ، وأن يكون ولاة الأمر من العلماء والحكام هم القدوة الصالحة في العمل الصالح والبحث عن مسببات غضب الله ونقمته ، وعلاجها بالتوبة والاستغفار وإصلاح الأوضاع ، والأمة تبع لهم ؛ لأن هداية العالم وحكمة الوالي وصلاحهما من أهم المؤثرات في الرعية ف (كلكم راعٍ وكل مسؤول عن رعيته) »[٣] .

وفي هذا أوضح البيان لرأي الشيخ – رحمه الله – في تعريف ولاة الأمور في شريعة الإسلام .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٥٩ .

(٢) الفتاوى ، جـ٧ ، ص : ١١٧ .

(٣) الفتاوى ، جـ٤ ، ص : ١٣٥ .

ب - منطلقات الشيخ في تعاونه وتعامله مع ولاة الأمر :

١ - التوجيه القرآني :

ابن باز – رحمه الله – عالم رباني ، وناصح نوراني ، بدأت مسيرته العلمية مع كتاب ربه جل وعلا قبل سن البلوغ ، فحفظه حفظاً متقناً ، حفظ المحب الشغوف المستنير المستبصر الخاشع المتدبر المتأمل المطبق الممتثل للأمر والنهي ، لم يحفظ القرآن نتيجة لضغوط أسرية ، أو اجتماعية ، ولم يحفظه ليحصل على مكافأة مالية ، ولا تقليداً سائداً ، ومجاراة باهتة، بل أقبل إليه بنفس طامعة ، وروحٍ خاشعة ، وعين دامعة ، وأعطي بصيرة من ربه ، وحياة في قلبه ، ونوراً في دربه ، فكان القرآن رائده الأول ، وقائده الأعظم ، ودستوره الأكمل، ومورده الأفضل ، وعنوانه الأجمل ، تمثل توجيهاته ، وتأثر بآياته ، وتعمق في إيحاءاته ، واستجاب لنداءاته ، فهو في تعاونه وتعامله مع ولاة الأمر يتقرب بذلك للديان ، ويترجم بفعله نبأ القرآن ، فهذه آياته تهتف بالمؤمنين : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾[1] .

فهذا أمر من الباري جل وعلا لعباده المؤمنين ، والشيخ من أسرع الناس استجابة لأوامر ربه والرضا بحكمه ، وهو تعالى القائل : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن**

---

(١) سورة النساء ، الآية ٥٩ .

يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً﴾(١).

لقد امتثل الشيخ أمر ربه بالطاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر ، والطاعة تقتضي حسن التعامل والتعاون ، وضرورة التآخي والتآزر ، والتناصح والتشاور ، وامتثل الشيخ التوجيه القرآن في حسن التعامل والتعاون ، حيث يقول تعالى : ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾** (٢).

ويقول تعالى : ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** (٣).

وها هو الشيخ يحث المسلمين عموماً والعلماء وطلبة العلم خصوصاً على اتباع القرآن، والالتزام بمبادئه ، والتدبر لآياته ، والتفهم لمعانيه ، والتأمل في مراميه ، فيقول – رحمه الله – : « وأيضاً أوصي إخواني جميعاً وعلى رأسهم أهل العلم وطلبته بالقرآن الكريم ، فإنه أعظم كتاب وأشرف كتاب ، وقد حوى خير العلوم كلها وأنفعها كما لا يخفى ، وهو أعظم عون بعد الله عز وجل على الفقه في الدين ، والتبصر فيه ، والخشية لله عز وجل ، وهو المعين في التأسي بالأخيار ، فأوصي الجميع ونفسي بهذا الكتاب العظيم ، تدبراً وتعقلاً وإكثاراً من تلاوته ليلاً ونهاراً ، والرجوع إليه في كل شيء ، ومراجعة كلام أهل التفسير فيما

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣٦ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٥٣ .

أشكل ، فهو خير معين على فهم كتاب الله جل وعلا ، لأن هذا الكتاب هو خير كتاب ، وأفضل كتاب ، وأصدق كتاب ، يقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (١).

ويقول عز وجل : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢).

ويقول جل وعلا : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ (٣).

ويقول سبحانه : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (٤).

فجدير بالمؤمنين والمؤمنات عامة وبأهل العلم خاصة أن يولوه العناية العظيمة ، وأن يعضوا عليه بالنواجذ ، وأن يجتهدوا في تدبره وتعقله والعمل به ، ومراجعة كلام أهل العلم فيما أشكل ، كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (٥).

وقال سبحانه : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٦)»(٧).

فالأساس الأول الذي انطلق منه الشيخ – رحمه الله – هو كتاب الله جل وعلا .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٩ .
(٢) سورة النحل ، الآية ٨٩ .
(٣) سورة فصلت ، الآية ٤٤ .
(٤) سورة الأنعام ، الآية ٣٨ .
(٥) سورة ص ، الآية ٢٩ .
(٦) سورة محمد ، الآية ٢٤ .
(٧) الفتاوى ، جـ٧ ، ص : ٢٠٨ – ٢٠٩ .

٢ - التوجيه النبوي :

الأساس الثاني الذي انطلق منه الشيخ - رحمه الله - هو سنة المصطفى ﷺ فهو حامل لوائها ، ومجيب ندائها ، وقامع أعدائها .

لقد هام بها قلبه ، وتعلق بها فؤاده ، وخفق بها جنانه ، وامتاز بها بيانه ، وسطع بها بنانه ، وهتف بها لسانه ، وارتفع بها شانه ، وعظم بنيانه ، وتوطدت أركانه ، ولقد زخرت السنة المشرفة بتوجيهات ماتعة ، ونداءات رائعة ، وأحكام ساطعة فيما يتعلق بطاعة ولاة الأمر ، وضرورة الاستجابة لهم ، والالتفاف حولهم ، وعدم منازعتهم الأمر ومخالفتهم الرأي ، مالم يأمروا بمعصية ، ويدعوا إلى مخالفة ، وهذه نظرة عاجلة ، وإيحاءة عابرة لتلك الأحاديث الناضرة ، والتوجيهات العاطرة .

ولقد أكثرنا هنا من الأحاديث الدالة على وجوب طاعة ولاة الأمر ؛ لأن فهم الشيخ لهذه الأحاديث وعمله بمضمونها هو الذي أثمر جميل التعامل ، ورائع التعاون ؛ فإن المرء إذا سمع وأطاع ، وصدق في الحب والولاء ، والشكر والثناء ؛ فتح أبواب التعامل والتعاون على مصاريعها ، أما إذا لم تكن طاعة ، ولم يوجد حب واحترام ، ولا امتثال والتزام ، فأنى يكون التعاون ، وكيف يجيء التعامل؟! .

١ - عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : « دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله ،

قال : إلا أن تروا كفراً بواحاً ، عندكم من الله فيه برهان »[١] .

قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث : « ومعنى الحديث لا تنازعوا ولاة الأمر في ولايتهم ، ولا تعترضوا عليهم ، إلا أن تروا منهم منكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام ، فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا بالحق حيثما كنتم ، وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين ، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته ، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق ، وأما الوجه المذكور في كتب الفقه لبعض أصحابنا أنه ينعزل ، وحكي عن المعتزلة أيضاً ، فغلط من قائله ، مخالف للإجماع ، قال العلماء : وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه هو ما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه »[٢] .

٢ – عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني »[٣] .

٣ – وعن أم الحصين قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أمر عليكم عبد مجدع يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا »[٤] .

---

(١) متفق عليه ، وهذا لفظ مسلم (٣ / ١٤٧٠) .
(٢) شرح صحيح مسلم للإمام النووي ، جـ ١٢ ، ص : ٢٢٩ .
(٣) البخاري (١٣ / ١١١) ، ومسلم (٣ / ١٤٦٦) .
(٤) رواه مسلم برقم (١٢٩٨) كتاب الإمارة .

٤ – وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه ، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية »[١] .

٥ – عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية الله فليكره الذي يأتي من معصية الله ولا ينزع يداً من طاعة »[٢] .

٦ – وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يكون من بعدي أئمة لا يهتدون بهديي ولا يستنون بسنتي وسيقوم فيكم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس » قلت : كيف أصنع إن أدركت ذلك؟ قال : « تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع »[٣] .

ولك أن تتأمل في هذا الحديث العظيم ، والبيان القويم ، فلم يقل : أئمة يقصرون في بعض الأمور أو يتهاونون في بعض المسائل ، بل : لا يهتدون بهديي ، ولا يستنون بسنتي . إن هذا الحديث يرفع كثيراً من الحرج والتبعات التي يعانيها كثير من الغيورين على دين الله ومنهاجه .

٧ – عن أم سلمة – رضي الله عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ : « سيكون بعدي أمراء فتعرفون وتنكرون فمن أنكر فقد برئ ومن

---

(١) رواه مسلم برقم (١٨٤٩) .
(٢) رواه مسلم (٣/ ١٤٨١) .
(٣) رواه مسلم برقم (١٨٤٧) .

كره فقد سلم ، ولكن من رضي وتابع » قالوا : أفلا ننابذهم بالسيف؟ قال : « لا ما أقاموا فيكم الصلاة »[١].

٨ – عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « اتقوا الله وعليكم بالسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي »[٢].

وفي هذا الحديث من المبالغة والتأكيد على الطاعة ما لا يخفى على المتأمل ؛ فالنبي ﷺ يعرف مقدار أنفة العرب ، وصعوبة قيادهم من ذوي الجاه والقدر والنسب ، فكيف بعبد حبشي؟ ، وما ذلك إلا لما يعرفه ﷺ من خطورة الموقف .

٩ – عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث خصال لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، والنصيحة لولاة الأمور ، ولزوم جماعتهم ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم »[٣].

١٠ – وثبت عنه ﷺ أنه قال : « إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها » قالوا : يا رسول الله كيف تأمر من أدرك ذلك منا؟ قال : « تؤدون الحق الذي عليكم ، وتسألون الله الذي لكم »[٤].

قال النووي عند هذا الحديث : « فيه الحث على السمع والطاعة

---

(١) رواه مسلم .
(٢) حديث صحيح رواه أحمد والترمذي وصححه ابن حبان .
(٣) حديث صحيح رواه أصحاب السنن .
(٤) رواه مسلم كتاب الإمارة الحديث رقم ٤٥ .

وإن كان المتولي ظالماً عسوفاً ، فيعطى حقه من الطاعة ، ولا يخرج عليه ولا يخلع ، بل يتضرع إلى الله تعالى في كشف أذاه ودفع شره وإصلاحه »[١] .

١١ – عن أبي ذر رضي الله عنه قال : أتاني رسول الله ﷺ وأنا نائم في المسجد فقال : « ماذا تفعل إذا أخرجت منه »؟ فقلت : أذهب إلى الشام . فقال : « كيف تفعل إذا أخرجت منها »؟ فقلت : أضرب بسيفي يا رسول الله ، فقال : « ألا أدلك على خير من ذلك وأقرب رشداً؟ تسمع وتطيع وتساق كيف ساقوك »[٢] .

١٢ – عن تميم الداري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الدين النصيحة » ، قلنا : لمن يا رسول الله؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »[٣] .

وهذا الحديث من الأحاديث التي لم يكن لسان الشيخ يفتر عن ترددها والتذكير بها في كل مناسبة .

إن هذه الأحاديث تلقي بظلالها الوارفة على القلوب ، وترسم الصورة الناصعة للتعامل ، وإن منها ما يحتاج إلى مجلد كامل لبيان بديع إعجازه ، وروعة إيجازه ، وعظيم فوائده ، وجميل شواهده ، وتلك جميعاً في وجوب السمع والطاعة ، أما الأحاديث التي امتثلها الشيخ في وجوب تعامله وتعاونه مع الدعاة والعاملين للإسلام فهي كثيرة جداً ،

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢ / ٢٣٢) .
(٢) حديث صحيح رواه أحمد وصححه الألباني .
(٣) رواه مسلم برقم (٥٥) .

ومنها قوله ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه ، وقوله ﷺ : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[١]، وهذا هو الأساس الثاني الذي انطلق منه الشيخ رحمه الله.

٢ - خير خلف لخير سلف :

إضافة إلى هذين المصدرين العظيمين اللذين انطلق منهما الشيخ في مسيرته مستنيراً بنورهما ، مستضيئاً بإيحائهما ، مستلهماً لأبعادهما فإنه قد أضاف إليهما ما بلغه علمه ، وكسبه فهمه من سيرة السلف الصالح بدءً بالصحابة الكرام ، ومروراً بالأئمة الأعلام ، وانتهاءً بأشياخه الكرام .

وإليك بعض مواقف السلف المتألقة ، ونظراتهم المتبصرة التي كانت نبراساً للشيخ بعد كتاب ربه وسنة نبيه ﷺ[٢]:

١ - عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

أخرج ابن أبي شيبة بإسناد جيد عن سويد بن غفله قال : «قال لي عمر رضي الله عنه : يا أبا أمية إني لا أدري لعلي لا ألقاك بعد عامي هذا فإن أمِّر عليك عبد حبشي مجدّع فاسمع له وأطع ، وإن ضربك فاصبر ، وإن حرقك فاصبر ، وإن أراد أمراً يُنقص دينك فقل : سمع وطاعة، ودمي دون ديني ، ولا تفارق الجماعة»[٣] .

---

(١) أخرجه أحمد ومسلم .

(٢) جمع كثيراً من هذه الأقوال والمواقف لعلماء السلف الشيخ عبد السلام برجس في كتابه معاملة الحكام في ضوء الكتاب والسنة ، فكان جهده مشكورا .

(٣) انظر مصنف ابن أبي شيبة (١٢ / ٥٤٤) والخلال في السنة ص ١١١ .

٢ - ابن عمر رضي الله عنه :

كان عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - وجماعات أهل بيت النبوة ممن لم ينقض العهد ، ولا بايع أحداً بعد بيعته ليزيد بن معاوية ؛ كما قال الإمام أحمد [١] : حدثنا إسماعيل بن علية ، حدثني صخر بن جويرية عن نافع ؛ قال : لما خلع الناس يزيد بن معاوية ؛ جمع ابن عمر بنيه وأهله ، ثم تشهد ، ثم قال : « أما بعد ؛ فإننا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة؛ يقال : هذا غدرة فلان » ، وإن من أعظم الغدر إلا أن يكون الإشراك بالله : أن يبايع رجل رجلاً على بيع الله وبيع رسوله ، ثم ينكثُ بيعته . فلا يخلعن أحدٌ منكم يزيد ، ولا يسرفن أحد منكم في هذا الأمر ، فيكون الفيصل بيني وبينه » .

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - في « الفتح »[٢] : « وفي هذا الحديث وجوب طاعة الإمام الذي انعقدت له البيعة ، والمنعُ من الخروج عليه ولو جار في حكمه ، وأنه لا ينخلع بالفسق » .

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن دينار ، قال شهدت ابن عمر حيث اجتمع الناس على عبد الملك ؛ قال : « كتب : إني أقرُّ بالسمع والطاعة لعبد الله ؛ عبد الملك ؛ أمير المؤمنين ، على سنة الله وسنة رسوله ما استطعت ، وإن بني قد أقرُّوا بمثل ذلك » .

---

(١) المسند (٧/ ١٣١ - ١٣٢) ، (٨/ ٨٤) ، ط . الشيخ أحمد شاكر .
(٢) انظر الفتح (١٣/ ٦٨) .

قوله : (حيث اجتمع الناس على عبد الملك) ؛ يريد : ابن مروان بن الحكم ، والمراد بالاجتماع : اجتماع الكلمة ، وكانت قبل ذلك مفرّقة ، وكان في الأرض قبل ذلك اثنان ، كل منهما يُدعى له بالخلافة ، وهما عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير رضي الله عنه .

وكان ابن عمر في تلك المدة امتنع أن يبايع لابن الزبير أو لعبد الملك، فلما غلب عبد الملك واستقام له الأمر ؛ بايعه . .

قال ابن حجر في الفتح [١] : « وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب ، والجهاد معه ، وأن طاعته خيرٌ من الخروج عليه ؛ لما في ذلك من حقن الدماء ، وتسكين الدهماء » .

وقال ابن العربي : وقد قال ابن خياط : « إن بيعة عبد الله ليزيد كانت كرهاً ، وأين يزيد من ابن عمر؟ ولكن ؛ رأى بدينه وعلمه التسليم لأمر الله ، والفرار من التعرض لفتنة فيها من ذهاب الأموال والأنفس ما لا يخفى »[٢] .

٣ - محمد بن الحنيفية - رحمه الله - :

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله تعالى – :

« ولما رجع أهل المدينة من عند يزيد ، مشى عبد الله بن مطيع وأصحابه إلى محمد بن الحنفيّة ؛ فأرادوه على خلع يزيد ؛ فأبى عليهم .

فقال ابن مطيع : إن يزيد يشربُ الخمر ، ويترك الصلاة ، ويتعدى

---

(١) انظر الفتح (١٣ / ٩) .

(٢) العواصم من القواصم ، ص : ٢٣ .

حكم الكتاب .

فقال لهم : ما رأيت منه ما تذكرون ، وقد حضرتُهُ ، وأقمتُ عنده ، فرأيته مواظباً على الصلاة ، متحرياً للخير ، يسأل عن الفقه ، ملازماً للسنة .

قالوا : فإن ذلك كان منه تصنُّعاً لك .

فقال : وما الذي خاف مني أو رجا حتى يُظهر إليّ الخشوع؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه ، وإن لم يكن أطلعكم فما يحلُّ لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا .

قالوا : إنه عندنا لحق وإن لم يكن رأيناه .

فقال لهم : أبى الله ذلك على أهل الشهادة ، فقال : ﴿**إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[1] ، ولست من أمركم في شيء .

قالوا : فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك ، فنحن نوليك أمرنا .

قال : ما أستحلُّ القتال على ما تريدونني عليه تابعاً ولا متبوعاً .

قالوا : قد قاتلت مع أبيك – أي : علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

قال : جيئوني بمثل أبي أقاتل على مثل ما قاتل عليه .

قالوا : فمر ابنيك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية ٨٦ .

قال : لو أمرتهما ؛ قاتلت .

قالوا : فقم معنا مقاماً تحُضُّ الناس فيه على القتال معنا .

قال : سبحان الله ! آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه ، إذاً ما نصحتُ لله في عباده .

قالوا : إذاً نُكرهك .

قال : إذاً آمر الناس بتقوى الله ، ولا يُرضون المخلوق بسخط الخالق .

وخرج إلى مكة »[١] .

٤ - محمد بن الحسين - رحمه الله تعالى - :

قال محمد بن الحسين في كتاب « الشريعة » للآجري : « قد ذكرتُ من التحذير من مذاهب الخوارج ما فيه بلاغ لمن عصمه الله تعالى عن مذاهب الخوارج ، ولم ير رأيهم ، فصبر على جور الأئمة ، وحيف الأمراء، ولم يخرج عليهم بسيفه ، وسأل الله تعالى كشف الظلم عنه ، وعن المسلمين ، ودعا للولاة بالصلاح ، وحجّ معهم ، وجاهد معهم كل عدو للمسلمين ، وصلى خلفهم الجمعة والعيدين ، وإن أمروه بطاعة فأمكن أطاعهم ، وإن لم يمكنه اعتذر إليهم ، وإن أمروه بمعصية لم يُطعهم ، وإذا دارت الفتن بينهم لزم بيته ، وكفّ لسانه ويده ، ولم يَهْوَ ما هم فيه ، ولم يُعن على فتنة ، فمن كان هذا وصفه كان على الصراط المستقيم إن شاء الله »[٢] .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٨ / ٢٣٢) .

(٢) من كلام محمد بن الحسين كما في « الشريعة » للآجري ، (١ / ٣٧١) .

٥ - الحسن البصري - رحمه الله - :

يقول الحسن البصري – رحمه الله – تعالى في الأمراء : « هم يلون من أمرنا خمساً : الجمعة ، والجماعة ، والعيد ، والثغور ، والحدود ، والله لا يستقيم الدين إلا بهم ، وإن جاروا وظلموا . والله لما يُصلح الله بهم أكثرُ مما يُفسدون ، مع أن طاعتهم والله لغبطةٌ ، وإن فُرقتهم لكفر »[١] .

ويقول – رحمه الله – : « هؤلاء – يعني الولاة العصاة – وإن رقصت بهم الهماليج ، ووطئ الناس أعقابهم ؛ فإن ذل المعصية في قلوبهم ، إلا أن الحق ألزمنا طاعتهم ، ومنعنا من الخروج عليهم ، وأمرنا أن نستدفع بالتوبة والدعاء مضرّتهم ، فمن أراد به خيراً لزم ذلك وعمل به ولم يخالفه »[٢] .

٦ - الإمام أحمد - رحمه الله - :

يقول حنبل – رحمه الله تعالى – : « اجتمع فقهاء بغداد في ولاية الواثق إلى أبي عبد الله – يعني : الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله تعالى – ، وقالوا له : إن الأمر قد تفاقم وفشا – يعنون : إظهار القول بخلق القرآن ، وغيرَ ذلك – ، ولا نرضى بإمرته ، ولا سلطانه . فناظرهم في ذلك ، وقال : عليكم بالإنكار في قلوبكم ، ولا تخلعوا يداً من طاعة، لا تشقوا عصا المسلمين ، ولا تسفكوا دماءكم ودماء المسلمين معكم ، وانظروا في عاقبة أمركم ، واصبروا حتى يستريح برٌّ أو يُستراح من فاجر . وقال : ليس هذا – يعني : نزع أيديهم من طاعته – صواباً ؛

---

(١) كتاب « آداب الحسن البصري » لابن الجوزي ص : ١٢١ .

(٢) كتاب « آداب الحسن البصري » لابن الجوزي ، ص : ١٢١ .

هذا خلاف الآثار»[١] .

وقال – رحمه الله في العقيدة التي رواها عنه عبدوس بن مالك العطار : «ومن غلب عليهم – يعني : الولاة – بالسيف حتى صار خليفة ، وسُمي أمير المؤمنين ؛ فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً ؛ برّاً كان أو فاجراً»[٢] .

واحتج الإمام أحمد بما ثبت عن ابن عمر – رضي الله عنهما – ؛ أنه قال : «... وأصلي وراء من غلب»[٣] .

وقال – رحمه الله – : «لا يُتعرض للسلطان فإن سيفه مسلول وعصاه»[٤] .

٧ – سهل التُّستري – رحمه الله تعالى – :

قال التستري – رحمه الله تعالى – : «لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء ، فإن عظّموا هذين ؛ أصلح الله دنياهم وأُخراهم ، وإن استخفوا بهذين ؛ أفسدوا دنياهم وأُخراهم»[٥] .

٨ – الطحاوي – رحمه الله تعالى – :

يقول الإمام أبو جعفر الطحاوي – رحمه الله – في عقيدته المشهورة: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ، ولا ندعو عليهم

---

(١) «الآداب الشرعية» لابن مفلح : (١/١٣٧) .
(٢) «الأحكام السطانية» لأبي يعلى ص٢٣ ، ط . الفقي .
(٣) ذكر ذلك القاضي في «الأحكام السلطانية» ص٢٣ من رواية أبي الحارث عن أحمد .
(٤) «الآداب الشرعية» (١/١٣٨) .
(٥) «تفسير القرطبي» : (٥/٢٦٠ – ٢٦١) .

ولا ننزع يداً من طاعتهم ، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل ما لم يأمروا بمعصية وندعو لهم بالصلاح والعافية » .

يقول ابن أبي العز الحنفي في شرحه لكلام الطحاوي : « وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا ؛ فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم، بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور ، فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا ، والجزاء من جنس العمل ، فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ **أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ** ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ (٤) .

فإذا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير الظالم ، فليتركوا الظلم .

وعن مالك بن دينار رضي الله عنه أنه جاء في بعض كتب الله : « أنا الله

---

(١) سورة الشورى ، الآية ٣٠ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٦٥ .
(٣) سورة النساء ، الآية ٧٩ .
(٤) سورة الأنعام ، الآية ١٢٩ .

مالك الملك ، قلوب الملوك بيدي ، فمن أطاعني جعلتُهم عليه رحمةً ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمةً ، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ، لكن توبوا أعطفهم عليكم »[١] .

٩ - البربهاري - رحمه الله تعالى - :

وقال الإمام الحسن بن علي البربهاري - رحمه الله - في كتاب « السنة » : « إذا رأيت الرجل يدعو على السطان ؛ فاعلم أنه صاحب هوى ، وإذا سمعت الرجل يدعو للسلطان بالصلاح ؛ فاعلم أنه صاحب سنة إن شاء الله تعالى .

يقول الفضيل بن عياض : لو كان لي دعوة ما جعلتها إلا في السلطان .

فأمرنا أن ندعو لهم بالصلاح ، ولم نُؤمر أن ندعو عليهم ، وإن جاروا وظلموا ؛ لأن جورهم وظلمهم على أنفسهم وعلى المسلمين ، وصلاحهم لأنفسهم وللمسلمين »[٢] .

ويقول - رحمه الله - : « من ولي الخلافة بإجماع الناس عليه ورضاهم به ؛ فهو أمير المؤمنين ؛ لا يحل لأحد أن يبيت ليلة ولا يرى أن ليس عليه إمام ؛ براً كان أو فاجراً هكذا قال أحمد بن حنبل » .

١٠ - شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى : -

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : « وأما ما يقع من ظلمهم وجورهم بتأويل سائغ أو غير سائغ ؛ فلا يجوز أن يزال لما فيه من

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ص : ٣٨١ .

(٢) « طبقات الحنابلة » : (٢ / ٣٦) .

ظلم وجور ، كما هو عادة أكثر النفوس ؛ تزيل الشر بما هو شرٌّ منه ، وتزيل العدوان بما هو أعدى منه ، فالخروج عليهم يوجب من الظلم والفساد أكثر من ظلمهم ، فيصبر عليه ؛ كما يصبر عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ظُلم المأمور والمنهيّ في مواضع كثيرة ؛ كقوله تعالى : ﴿ **وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ** ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** ﴾[٣] .

وقال – رحمه الله – : « وأما أهل العلم والدين والفضل فلا يرخصون لأحد فيما نهى الله عنه من معصية ولاة الأمور ، وغشهم ، والخروج عليهم : بوجه من الوجوه ، كما قد عُرف من عادات أهل السنة والدين قديماً وحديثاً ، ومن سيرة غيرهم »[٤] .

ويقول – رحمه الله – : « ولهذا كان المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف ، وإن كان فيهم ظلم ، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي ﷺ لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة ، فلا يُدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما . ولعله لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو

---

(١) سورة لقمان ، الآية ١٧ .
(٢) سورة الأحقاف ، الآية ٣٥ .
(٣) سورة الطور ، الآية ٤٨ .
(٤) « مجموع فتاوى ابن تيمية » : (٣٥/١٢) .

أعظم من الفساد الذي أزالته »[١] .

ويقول – رحمه الله – في (السياسة الشرعية) : « يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من واجبات الدين ، بل لا قيام إلا بها ، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس . . » إلى أن قال – رحمه الله – : « ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة ، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة ، ولهذا روي « إن السلطان ظل الله في الأرض »[٢] ، ويقال : « ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان » ، والتجربة تبين ذلك ، ولهذا كان السلف كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل – رحمهما الله – وغيرهما يقولون : (لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان) » ، إلى أن قال رحمه الله : « فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يُتقرب بها إلى الله ، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات ، وإنما يفسد حال أكثر الناس لابتغاء الرئاسة أو المال بها »[٣] .

---

(١) « منهاج السنة النبوية » (٣ / ٣٩١) .

(٢) لم تصحّ روايةٌ بهذا اللفظ ، والروايات في هذا متعددة بين موضوع ومنكر وضعيف ، لكن ثمة رواية فيها زيادة : « . . فمن أكرمه أكرمه الله ، ومن أهانه أهانه الله » حسنها الألباني بمجموع طرقها . من هذه الطرق ما رواه أحمد في مسنده (٥ ، ٤٢) عن أبي بكرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أكرم سلطان الله تبارك وتعالى في الدنيا ، أكرمه الله يوم القيامة ، ومن أهان سلطان الله في الدنيا ، أهانه الله يوم القيامة » انظر الصحيحة برقم (٢٢٩٧) ، انظر السلسلة الضعفية برقم (٦٠٤) و (١٦٦١ وما بعده) .

(٣) « السياسة الشرعية » ضمن الفتاوى (٢٨ / ٣٩٠ – ٣٩١) .

وقال – رحمه الله – : « فطاعة الله ورسوله واجبةٌ على كل أحد ، وطاعة ولاة الأمور واجبة لأمر الله بطاعتهم ، فمن أطاع الله ورسوله بطاعة ولاة الأمر لله ، فأجره على الله ، ومن كان لا يطيعهم إلا لما يأخذوه من الولاية والمال ، فإن أعطوه أطاعهم ، وإن منعوه عصاهم : فما له في الآخرة من خلاق »[١] .

وإن المتأمل لمسيرة سماحة الشيخ العلمية والعملية ومنهاجه في التعامل والتعاون يجد أنه من أكثر الناس فهماً لمنهج شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله وتأثراً به ، واستفادة من كتبه ، والمتأمل في ذلك يجد توافقاً بديعاً وتشابهاً كبيراً بينهما في أغلب الصفات والسمات ، وما ذلك إلا لأنهما ينهلان من نهر واحد ، ويقبسان من مشكاة واحدة .

ولأهمية منهج شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – وموقفه من الحكام والسلاطين والولاة فإنني أطيل الوقوف معه هنا للحاجة الملحة إلى تجلية النظرة الشرعية في هذا الميدان ، وأكتفي هنا بنقل بعض المقاطع من الكتاب القيم الذي ألفه الدكتور عبد الله بن رشيد الحوشاني – جزاه الله خيراً – بعنوان : « منهج ابن تيمية في الدعوة » ، فاستمع إلى الحوشاني حيث يقول :

«أولاً : الدراسة التحليلية لنفسيات وطبائع الولاة والحكام :

قدم شيخ الإسلام تصوراً وتحليلاً نفسياً لعامة الولاة ، أو لعموم الناس الذين يتولون مناصب كبيرة ، وهذا التصور والتحليل يعطي راحة

---

(١) « مجموع فتاوى ابن تيمية » (٣٥/١٦ – ١٧) .

واطمئناناً لمنهجه في التعامل معهم ؛ لأنه تعاملٌ مدروس ومقصود ، ومبني على وعي ومعرفة كاملة بالأرضية التي يتعامل معها .

وقبل عرض منهجه في التعامل مع الولاة نقدم تلك الدراسة التحليلية لنفسيات وطبائع الولاة والحكام ، وهذه الدراسة لا يجمعها مكان واحد ، وإنما تم جمعها من مواطن متفرقة من كتبه :

أ – الولاة والرؤساء والأمراء يحبون هذه الرياسات ويطلبونها « وطلب الرياسة والمال مباح »[١] ، ومن طبع الإنسان أنه يحب أن يكون رأساً ، وهذا هو الشهوة الخفية ، قال شداد بن أوس : إن أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية . قال أبو داود : هي حب الرئاسة .

وهو يُحْدِثُ لكثير من أصحابه سُكْراً ، « ومن السكر أيضاً ما يكون بحب الرياسة والمال أو شفاء الغيظ ، فإنه إذا قوي ذلك أوجب سكراً ، وإنما كانت هذه الأشياء قد توجب سكراً ، لأن السكر شبيه ما يوجب اللذة القاهرة التي تضمر العقل ، وسبب اللذة إدراك المحبوب ، فإذا كانت المحبة قوية وإدراك المحب قوياً ، والعقل والتمييز ضعيفاً كان ذلك سبباً للسكر ، لكن ضعف العقل تارة يكون من ضعف الإنسان المحب ، وتارة يكون من قوة السبب الوارد ، ولهذا يحصل من السكر للمبتدئين في إدراك الرياسة والمال والعشق والخمر ما لا يحصل لمن اعتاد ذلك وتمكن فيه »[٢] .

فالمبتدئون بالرئاسة أشد سكراً بها ، لما ينالهم من التعظيم وتسابق

---

(١) انظر منهاج السنة (٧ / ٤٦٧) .
(٢) الاستقامة (٢ / ١٤٦) .

الناس إليهم ومداهنتهم ، وهذا شيء لم يألفوه ولم يعتادوا عليه ، مما يجعل الغرور يسارع إلى نفوسهم ، فتتعاظم بعض النفوس كما تعاظمت نفس فرعون حتى قال : ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى** ﴾[١] ، ﴿ **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي** ﴾[٢] .

ومن النفوس من يصل تعاظمها إلى أقل من ذلك ، وإذا حصل هذا السكر بالزعامة وسلطنة الترأس على الناس فإنه يحب ويرضى كلمة المدح والثناء ، ولو كانت كذباً وباطلاً ، ويعلم أنها كذلك ؛ لأنه يتوقع أن كثيراً من السامعين الحاضرين والغائبين يصدقون هذا المدح والثناء ، وهذا يهمه كثيراً بينما تسخطه وتثير غضبه الكلمة التي فيها نقده وبيان خطئه ، ولو كانت حقاً وصدقاً ويعلم أنها كذلك ؛ لأنه لا يحب أن يسمع أتباعه عيوبه فيخشى أن تقل منزلته عندهم أو أن يتجرؤوا على نقده وبيان عيوبه ، وأقل الأحوال أن في الناس من إذا سمع هذا النقد صدقه وأعجبه ومالت نفسه إليه .

يقول رحمه الله : « وطالب الرئاسة – ولو بالباطل – ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت باطلاً ، وتغضبه الكلمة التي فيها ذمة وإن كانت حقاً ، والمؤمن ترضيه كلمة الحق له وعليه ، وتغضبه كلمة الباطل له وعليه ؛ لأن الله تعالى يحب الحق والصدق والعدل ، ويبغض الكذب والظلم »[٣] ، ويبين أن الجاه فتنة لكل مفتون .

---

(١) النازعات : ٢٤ .
(٢) القصص : ٣٨ .
(٣) الفتاوى (١٠ / ٦٠٠) .

الفتنة في الرئاسة والجاه والمال وغيره تستولي على القلب حتى تسكره ولا تزول «إلا إذا كان دين العبد كله لله عز وجل ، فيكون حبه لله ولما يحبه الله ، وبغضه لله ولما يبغضه الله ، وكذلك موالاته ومعاداته»[١] .

وبعض الأمور التي تجعل للإنسان مكانة ومنزلة بين الناس يكون له فيها من الفتنة النفسية ما لا يوجد في غيرها ، فمثلاً : العلم ، والإمارة ، والجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر فيها «من الفتنة النفسية وغيرها ما ليس في غيرها ، ويعرض في ذلك ميل النفس إلى الرئاسة والمال والصور ، فإذا كانت النفس غير قادرة على ذلك لم تطمع فيه ، كما تطمع مع القدرة ، فإنها مع القدرة تطلب تلك الأمور المحرمة ، بخلاف حالها بدون القدرة ، فإن الصبر مع القدرة جهاد ، بل هو أفضل من الجهاد»[٢] .

وما دام أن النفوس تشتهي الرئاسة والعلو وتتعلق بالصور الجميلة فإنه يلزم الحذر من الانسياق وراء مرادات النفس التي هي خلاف الحق أو المصلحة ؛ لأنها ستكون تعذيباً للنفس ، وتكالباً للهموم والغموم والأحزان والآلام عليها ، وضيقاً للصدر بما لا يستطاع تصوره والتعبير عنه . «وربما لا يطاوعه قلبه على ترك الهوى ، ولا يحصل له ما يسره ، بل هو في خوف وحزن دائماً إن كان طالباً لما يهواه ، فهو قبل إدراكه حزين متألم حيث لم يحصل ، فإذا أدركه كان خائفاً من زواله وفراقه»[٣] .

---

(١) الفتاوى (١٠/٦٠١) .
(٢) الفتاوى (١٠/٥٧٦) .
(٣) الفتاوى (١٠/٦٥١) .

ب – الرياسة محبوبة مرغوبة ، ومن حصل عليها من الملوك أحب أن تدوم له وتستمر ؛ لذا تجد أن أصحاب الرياسات والولايات يعملون أعمالاً من شأنها أن تحفظ لهم سلطتهم وتبقيها في أيديهم ، من ذلك : تولية أقاربه المناصب والولايات وإيثارهم بها ، وذلك لوجوه :

أحدها : محبتهم لأقاربهم أكثر من الأجانب ، لما في الطباع من ميل الإنسان إلى قرابته .

الثاني : لأن أقاربهم يريدون إقامة ملكهم ما لا يريده الأجنبي ؛ لأن في عزّ قريب الإنسان عزٌّ لنفسه ، ومن لم يكن له أقارب من الملوك استعان بمماليكه ومواليه فقربهم واستعان بهم ، وهذا موجود في ملوك المسلمين والكفار »[١] .

ثم ضرب أمثلة في بني أمية وبني العباس في تولية أقاربهم ، ثم قال : « وكان ذلك مما يقيمون به ملكهم »[٢] ، وذكر ملوك الطوائف وملوك الكفار وأهل الكتاب وملوك الفرنج .. إلخ .

ج – أغنياء الناس وكبراؤهم من المترفين المتكبرين هم من أبعد الناس عن قبول الحق والإذعان له ، وأمثال هؤلاء « قد قالوا لنوح : ﴿ **أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ** ﴾[٣] .

فهذا فيه أن أهل الرئاسة والشرف يكونون أبعد عن الانقياد إلى عبادة

---

(١) منهاج السنة (٧/٤٦٦) .
(٢) منهاج السنة (٧/٤٦٦) .
(٣) الشعراء : ١١١ .

الله وطاعته ؛ لأن حبهم للرئاسة يمنعهم ذلك ، بخلاف المستضعفين ، وفي هذا المعنى الحديث المأثور – إن كان محفوظاً – : « اللهم أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين »[١] .

فالمساكين ضد المتكبرين ، وهم الخاشعون لله ، المتواضعون لعظمته ، الذين لا يريدون علواً في الأرض ، سواء كانوا أغنياء أو فقراء »[٢] .

والفقر ليس هو التواضع والمسكنة والتذلل ، وهذا نشأ من رؤية أكثر الفقراء على هذا ، وليس التواضع والمسكنة في لفظ (الفقراء) الوارد بالنصوص هو هذا ، بل هو عدم المال ، والمسكنة خضوع القلب .

ويعطينا شيخ الإسلام نظريته بما يسر الأغنياء والشرفاء والرؤساء ، حيث يقرر أن الصلاح في الفقراء أكثر منه في الأغنياء ، ولكنه إذا كان في الأغنياء فهو أكمل منه في الفقراء ، ويدلل على ذلك بقوله : « ولهذا كان الغالب على المهاجرين الفقر ، والغالب على الأنصار الغنى ، والمهاجرون أفضل من الأنصار ، وكان في المهاجرين أغنياؤهم من أفضل المهاجرين ، مع أنهم بالهجرة تركوا من أموالهم ما صاروا به فقراء بالنسبة إلى ماكانوا عليه »[٣] .

فإذا كان الملوك والرؤساء والأمراء والأغنياء صالحين فهم أنفع وأعز للأمة من صلاح الفقراء ، وتأثيرهم في المجتمع ونصر الإسلام في كل مكان ، وتأييد أهله والدعاة إليه أقوى وأعظم مما يفعله الفقراء والضعفاء

---

(١) حديث صحيح أخرج ابن ماجة في كتاب الزهد ، رقم (٤١٢٦) .
(٢) الفتاوى (١١ / ١٣٠) .
(٣) الفتاوى (١١ / ١٣٢) .

الصالحون ، فصلاح واحد من الملوك أو الرؤساء أو الأمراء يعادل آلافاً من هؤلاء وفي كل خير ، والله نسأل أن يصلح أئمتنا وولاة أمورنا وأمور المسلمين .

د – نظراً لنفسية التكبر والتعالي عند أكثر الرؤساء والملوك والولاة فإنهم يحبون من يبدي التذلل والخضوع عندهم ، ولا يحبون من يأتي شامخاً بأنفه معتزاً بنفسه يخاطبهم بصوت عال ، أو يتكلم في مجالسهم بصوت يعلو على أصواتهم ، ولعل كراهيتهم لهذا لما فيه من توجه الأنظار إلى غيرهم ، وسحب الأضواء عنهم ، ولما فيه من الغضاضة والرعونة ؛ لذا كان من الأدب عدم رفع الأصوات من غير حاجة « لأن الملوك لا ترفع الأصوات عندهم ، ومن رفع صوته لديهم مقتوه »[١] .

هذا مع أن الأدب العام مع كل أحد عدم رفع الصوت ؛ لأن رفع الصوت من غير حاجة خلق ممقوت ، يقول العبد الصالح لولده : ﴿ **وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴾[٢] .

ثانياً : ولاية المسلمين من الواجبات في الدين :

يرى ابن تيمية – وهو اعتقاد أهل السنة والجماعة – أن ولاية المسلمين من واجبات الدين وضرورياته التي لا يجوز التشاغل عنها وتركها ؛ لأن بقاء الناس بلا حاكم من أعظم الفساد ومن أخطر أبواب الشر والفتنة ، بل وجود إمام ظالم خير من بقاء الناس بلا إمام ، والوالي

---

(١) التفسير الكبير (٤ / ٣٠٠) .
(٢) لقمان : ١٩ .

الصالح من أعظم أسباب صلاحة الأمة [١].

يقول رحمه الله في شأن الوالي : «وهو أقوى الأسباب التي بها يصلح أمور خلقه وعباده فإذا صلح ذوو السلطان صلحت أمور الناس ، وإذا فسد فسدت بحسب فساده ، ولا تفسد من كل وجه ، بل لا بد من مصالح ، إذ هو ظل الله لكن الظل لا يكون كاملاً مانعاً من جميع الأذى، وتارة لا يمنع إلا بعض الأذى ، وإذا عدم الظل فسد الأمر»[٢] .

ويقول : «فإن الخلق عباد الله ، والولاة نواب الله على عباده ، وهم وكلاء العباد على نفوسهم بمنزلة أحد الشريكين مع الآخر ، ففيهم معنى الولاية والوكالة»[٣] .

ومن تولى على الناس وساسهم بعلم وعدل فعمله من أعظم العبادات وأرفع المنازل، يقول - رحمه الله - : «ولهذا كانت الولاية - لمن يتخذها ديناً يتقرب به إلى الله ، ويفعل فيها الواجب بحسب الإمكان - من أفضل الأعمال الصالحة ، حتى قد روى الإمام أحمد في مسنده عن النبي ﷺ أنه قال : «إن أحب الخلق إلى الله إمام عادل ، وأبغض الخلق إلى الله إمام جائر»[٤] .

وقال بعد أن ذكر بعض الولايات : «وجميع هذه الولايات هي في الأصل ولاية شرعية ، ومناصب دينية ، فأي من عدل في ولاية من هذه

---

(١) انظر منهاج السنة (١/٥٤٧) .
(٢) الفتاوى (٣٥/٤٦) .
(٣) منهاج السنة (٢/١٢) .
(٤) الفتاوى (٢٨/٦٥) .

الولايات فساسها بعلم وعدل ، وأطاع الله ورسوله بحسب الإمكان ، فهو من الأبرار الصالحين ، وأي من ظلم وعمل فيها بجهل فهو من الفجار الظالمين ، إنما الضابط قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[١] .

ويقول : « فإذا اجتهد الراعي في إصلاح دينهم ودنياهم بحسب الإمكان كان من أفضل أهل زمانه ، وكان من أفضل المجاهدين في سبيل الله »[٢] .

وهذه الطاعة المأمور بها لولاة الأمور عبادة يجب أن تكون من أجل الله لا لحظوظ الدنيا ، يقول – رحمه الله – : « وطاعة ولاة الأمور واجبة لأمر الله بطاعتهم ، فمن أطاع الله ورسوله بطاعة ولاة الأمر لله فأجره على الله ، ومن كان لا يطيعهم إلا لما يأخذه من الولاية والمال فإن أعطوه أطاعهم وإن منعوه عصاهم فما له في الآخرة من خلاق ، وقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم (ثم ذكر الثالث) ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا ، فإن أعطاه منها وفّى ، وإن لم يعطه منها لم يف »[٣] .

وبهذا يتبين منزلة ولاية أمر المسلمين في منهج ابن تيمية ، وأنها بمكانة سامقة ، ولها موقع في النفوس عظيم .

---

(١) الفتاوى (٢٨ / ٦٨) .
(٢) الفتاوى (٢٨ / ٢٦٢) .
(٣) متفق عليه ، انظر فتح الباري (١٣ / ٢٠١) ، وانظر الفتاوى (٣٥ / ١٦) .

ثالثاً : وجوب طاعة الولاة وحرمة الخروج والثورة عليهم :

وطاعة ولي الأمر لا تخضع لضوابط معينة من اللغة والجنس واللون ، فهو ما دام يسوس الأمة بالشريعة فطاعته واجبة ولا يجوز عصيان أمره والخروج عليه ، والحالة هذه كبيرة من كبائر الذنوب ؛ فالإمام ما دام لم يظهر منه كفر بواح عليه من الله برهان فإنه يحرم الخروج عليه حتى ولو ارتكب الكبائر دون الشرك ، حتى ولو ظلم الناس بأخذ حقوقهم وبخسهم فيها ، قال رحمه الله : « ونهوا عن قتالهم ما صلوا ، وذلك لأن معهم أصل الدين المقصود وهو توحيد الله وعبادته ، ومعهم حسنات وترك سيئات كثيرة »[١] .

ويورد الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عليك بالسمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك »[٢] .

ومعنى : « وأثرة عليك » أي وإن استأثر ولاة الأمور عليك فلم ينصفوك ولم يعطوك حقك (وذكر أحاديث فيها أثرة الحكام وأخذهم الحق الذي لهم من الناس ومنع الناس حقهم ، وظهور أمور ينكرها الناس، وفيها وصية الرسول ﷺ بالسمع والطاعة لهم : « فإنما عليهم ما حُمِّلوا وعليكم ما حُمِّلتم »[٣] ، ثم قال بعد ذلك) : « فذلك ما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم ؛ وهو واجب على المسلم ،

---

(١) الفتاوى (٢٨ / ١٧٩) .
(٢) صحيح مسلم (٣ / ١٤٦٧) رقم (١٨٣٦) .
(٣) صحيح مسلم (٣ / ١٤٧٤) .

وإن استأثروا عليه ، وما نهى الله عنه ورسوله من معصيتهم ، فهو محرم عليه ، وإن أكره عليه .

وهذه الطاعة واجبة وإن لم يعاهدهم على ذلك ، وإن لم يحلف لهم الأيمان المؤكدة ، كما يجب عليه الصلوات الخمس ، والزكاة والصيام وحج البيت . . ، فإذا حلف على ذلك كان ذلك توكيداً وتثبيتاً لما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم ، فالحالف على هذه الأمور لا يحل له أن يفعل خلاف المحلوف عليه ، سواء حلف بالله أو غير ذلك من الأيمان التي يحلف بها المسلمون »[١] .

ولا يجوز لأحد أن يفتيه في الحنث في يمينه ومخالفته ما حلف عليه بما أمر الله ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم ، من أفتى بذلك فهو مفتر على الله الكذب مفت بغير دين الإسلام .

ويقرر أن معاقدة ولاة الأمور هي أعظم العقود التي أمر الله بالوفاء بها، وإذا نظرنا إلى الواقع نجد أن الخروج على الأئمة لإزالة ظلمهم وجورهم ومخالفاتهم الشرعية وكل ما وقع منهم دون الكفر ، سواء بتأويل سائغ أو غير سائغ لا يجوز لما يترتب على ذلك من مفاسد ؛ لأن التغيير لا يكون إلا بما هو أظلم منه وأشد ضرراً ، وهذا « عادة أكثر النفوس تزيل الشر بما هو شر منه ، وتزيل العدوان بما هو أعدى منه »[٢] .

ويرى ابن تيمية أن الخروج على الأئمة والثورة لا يزيل الشر بل يزيده، ويأتي بشر أعظم ، والحل في نظره هو الصبر على هذا الظالم

---

(١) الفتاوى (٣٥/ ٩) .
(٢) الفتاوى (٢٨/ ١٧٩) .

ومعالجته ، يقول : « فالخروج عليهم يوجب من الظلم والفساد أكثر من ظلمهم ، فيصبر عليه .. »[١] .

ويقول : « نهى النبي ﷺ عن قتال الأئمة إذا كان فيهم ظلم ؛ لأن قتالهم فيه فساد أعظم من فساد ظلمهم »[٢] .

وقال : « والشرع أمر كل إنسان بما هو المصلحة له وللمسلمين ، فأمر الولاة بالعدل والنصح لرعيتهم ، وأمر الرعية بالطاعة والنصح ، وأمر بالصبر على استئثارهم ، ونهى عن مقاتلتهم ومنازعتهم الأمر مع ظلمهم؛ لأن الفساد الناشئ من القتال في الفتنة أعظم من فساد ظلم ولاة الأمر ، فلا يزال أخف الفسادين بأعظمهما »[٣] .

والتاريخ خير شاهد ، فالثورات على الحكام لم تأت إلا بالقتل وإثارة الأحقاد وفناء الأخيار وبقاء الفجار كما هم ، إضافة إلى أنواع من الظلم، وإشغال الأمة عن الجهاد ومراقبة الأعداء الكفار ، إضافة إلى أن الحكام يركنون إلى المنافقين وأصحاب الأهواء الذين يتربصون بالمخلصين الدوائر .

وابن تيمة يقيم للتجارب ونتائجها أكبر الاعتبار ، فلا داعي لتكرار التجارب المريرة ، فيلزم الطاعة للأئمة والقتال معهم ، والصبر على ظلمهم وجورهم إذا لم يكن في ترك الصبر مفسدة راجحة ، حتى وإن كانوا فجرة فسقة ، معلنين بذلك ، ما داموا مقيمين للصلاة ومقيمين لأركان الدين ، وهذا من أصول أهل السنة والجماعة ، حيث يرون أنه : « لا تجوز

---

(١) الفتاوى (٢٨ / ١٨٠) .
(٢) الاستقامة (١ / ٣٤) .
(٣) منهاج السنة (٤ / ٥٤١) .

معصية الإمام براً كان أو فاجراً إلا أن يأمره بمعصية الله »[١] .

ولا يكون جور الأئمة وظلمهم مبرراً للشعوب منع الحكام ما لهم من الحقوق على شعوبهم ، بل الواجب أداء الحقوق إليهم ، يقول – رحمه الله – : « ولا لهم أن يمنعوا السلطان ما يجب دفعه إليهم من الحقوق وإن كان ظالماً ، كما أمر النبي ﷺ لما ذكر جور الولاة فقال : « أدوا إليهم الذي لهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم »[٢] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها » قالوا : فما تأمرنا به يا رسول الله؟ قال : « أدوا إليهم حقهم ، واسألوا الله حقكم »[٣] .

والخروج على الولاة لا يجوز إلا في حالة واحدة ، وهو أن يصدر منه كفر بواح مرئي أو مسموع عليه من الله برهان ، ليس من الأمور الاجتهادية المختلف فيها ، ومما يسوغ فيه الاجتهاد .

يقول – رحمه الله – عن نهج أهل العلم والدين والفضل وعادات أهل السنة على مر العصور ، أنهم « لا يرخّصون فيما نهى الله عنه من معصية ولاة الأمور ، وغشهم ، والخروج عليهم بوجه من الوجوه ، كما قد عرف من عادات أهل السنة والدين قديماً وحديثاً ومن سيرة غيرهم »[٤] .

---

(١) الفتاوى (٢٨ / ٥٨٧) .
(٢) فتح الباري (٦ / ٤٩٥) .
(٣) فتح الباري (١٣ / ٥) ، وانظر الفتاوى (٢٨ / ٢٦٧) .
(٤) الفتاوى (٣٥ / ١٢) .

وفي صحيح مسلم عن نافع قال : جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع حين كان من أمر الحرة ما كان زمن يزيد بن معاوية ، فقال : اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة ، فقال : إني لم آتك لأجلس ، أتيتك لأحدثك حديثاً : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية »[١] .

ووجود البغي من الأئمة لا يوجب قتالهم ولا يبيحه « بل من الأصول التي دلت عليها النصوص أن الإمام الجائر الظالم يؤمر الناس بالصبر على جوره وظلمه وبغيه ، ولا يقاتلونه ، كما أمر النبي ﷺ بذلك في غير حديث ، فلم يأذن في دفع البغي مطلقاً بالقتال ، بل إذا كانت فيه فتنة نهى عن دفع البغي به ، وأمر بالصبر على جوره ، أما إذا وقع بغي ابتداء بغير قتال مثل أخذ مال أو مثل رئاسة بظلم ، فلم يأذن الله في اقتتال طائفتين من المؤمنين على مجرد ذلك ؛ لأن الفساد في الاقتتال في مجرد رئاسة أو أخذ مال فيه نوع ظلم ، فلهذا نهى النبي ﷺ عن قتال الأئمة إذا كان فيهم ظلم ؛ لأن قتالهم فيه فساد أعظم من فساد ظلمهم ، وقوله ﷺ : « ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها، قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال : « أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم »[٢] .

وأمثال ذلك من الأحاديث الصحاح ، فأمر مع ذكره لظلمهم بالصبر وإعطاء حقوقهم ، وطلب المظلوم حقه من الله ، ولم يأذن للمظلوم الدخول مع الولاة في خصومات تدفعهم أن يقتحموا أموراً تؤدي بهم

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٨) ، وانظر الفتاوى (٣٥/ ١٢) .
(٢) صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٨) .

إلى الظلم وارتكاب المحرمات من أجل الانتصار لذواتهم وخوفاً على عروشهم ، يخيل لهم حيناً أن هذا هو أقوم السبل ، وأحياناً كثيرة من الظلم المحض ، لذا « يقول علي بن أبي طالب : إن للخصومات قحماً ، وإن الشيطان يحضرها »[١] .

والقحم : الأمور العظام التي لا يركبها كل أحد ، بمعنى أن المرء في حال الخصام يقدم ويتجرأ على أمور لا يقدم عليها ولا يجرؤ لولا الخصومة ، وإنه يستجيز لنفسه في هذه الحالة أموراً لا يجيزها في غيرها ، وإذا فعل الولاة ذلك حدثت الفتن ؛ لأن أنصار الحق لن يُسلم بعضهم بعضاً لمخالب هؤلاء ، ومن ثم يقوم البلاء ؛ والذي يريد أن يعتبر في دواهي الفتن وما تجره على الناس من الأضرار والمصائب ، حتى إن المرء ليحار في عقول العقلاء الذي دهاها ، فلينظر لما حدث في قرن من القرون رجاله خير الرجال ، وذلك بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه « والفتنة إذا وقعت عجز العقلاء فيها عن دفع السفهاء ، فصار الأكابر – رضي الله عنهم – عاجزين عن إطفاء الفتنة وكف أهلها ، وهذا شأن الفتن ، كما قال تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً** ﴾[٢] ، وإذا وقعت الفتنة لم يسلم من التلوث بها إلا من عصمه الله »[٣] .

---

(١) منهاج السنة المحقق (٦ / ١٩٦) .
(٢) الأنفال : ٢٥ .
(٣) منهاج السنة (٢ / ٢٤٦) .

١١ - العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - :

ويقول العلامة ابن قيم الجوزية – رحمه الله – : « (ومناصحة أئمة المسلمين) ، هذا أيضاً مناف للغل والغش ، فإن النصيحة لا تجامع الغل ، فهي ضده ، فمن نصح الأئمة والأمة ، فقد برىء من الغل . وقوله : (ولزوم جماعتهم) : هذا أيضاً مما يطهر القلب من الغل والغش ، فإن صاحبه للزومه جماعة المسلمين يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها ، ويسوؤه ما يسوؤهم ، ويسره ما يسرهم ، وهذا بخلاف من انحاز عنهم ، واشتغل بالطعن عليهم والعيب والذم لهم ، كفعل الرافضة والخوارج والمعتزلة وغيرهم ، فإن قلوبهم ممتلئة غلاً وغشاً ولهذا تجد الرافضة أبعد الناس من الإخلاص وأغشّهم للأئمة والأمة ، وأشّدهم بعداً عن جماعة المسلمين »[١] .

١٢ - ابن رجب الحنبلي - رحمه الله تعالى - :

يقول العلامة ابن رجب الحنبلي – رحمه الله – في شرحه لحديث : « الدين النصيحة » : « وأما النصيحة لأئمة المسلمين فحب صلاحهم ورشدهم وعدلهم وحبُّ اجتماع الأمة عليهم وكراهةُ افتراق الأمة عليهم والتديُن بطاعتهم في طاعة الله عز وجل والبغض لمن رأى الخروج عليهم وحبُّ إعزازهم في طاعة الله عز وجل » إلى أن قال – رحمه الله – : « معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وتذكيرهم به وتنبيههم في رفق ولطف ، ومجانبةُ الوثوب عليهم ، والدعاء لهم بالتوفيق ، وحث الأغيار على ذلك »[٢] .

---

(١) مفتاح دار السعادة (١ / ٦٢) .

(٢) جامع العلوم والحكم (١ / ٢٢٢) .

١٣ - الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - :

يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - : «الأئمة مجمعون من كل مذهب على أن من تغلّب على بلد أو بلدان ؛ له حكم الإمام في جميع الأشياء ، ولولا هذا ما استقامت الدنيا ؛ لأن الناس من زمن طويل ، قبل الإمام أحمد إلى يومنا هذا ، ما اجتمعوا على إمام واحد ، ولا يعرفون أحداً من العلماء ذكر أن شيئاً من الأحكام لا يصح إلا بالإمام الأعظم»[١] .

ويقول - رحمه الله - في رسالة (الأصول الستة) : «الأصل الثالث : إن من تمام الاجتماع السمع والطاعة لمن تأمر علينا ولو كان عبداً حبشياً ، فبين النبي ﷺ هذا بياناً شائعاً ذائعاً بكل وجه من أنواع البيان شرعاً وقدراً ، ثم صار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم ، فكيف العمل به؟»[٢] .

١٤ - الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ - رحمه الله - :

يقول الشيخ الإمام عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ - رحمه الله - في كلام عظيم في معرض رده على بعض الأطراف : «ولم يدر هؤلاء المفتونون أن أكثر ولاة أهل الإسلام من عهد يزيد بن معاوية - حاشا عمر بن عبد العزيز ومن شاء الله من بني أمية - قد وقع منهم من الجرأة والحوادث العظيمة والخروج والفساد في ولاية أهل الشام ، ومع ذلك ؛ فسيرة الأئمة الأعلام والسادة العظام معهم معروفة مشهورة ،

---

(١) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (٧/٢٣٩) .

(٢) من كتاب الجامع الفريد من كتب ورسائل لأئمة الدعوة الإسلامية : ٢٨١ .

لا ينزعون يداً من طاعة فيما أمر الله به ورسوله من شرائع الإسلام وواجبات الدين .

وأضربُ لك مثلاً بالحجاج بن يوسف الثقفي ، وقد اشتُهر أمره في الأمة بالظلم ، والسذاجة ، والإسراف في سفك الدماء ، وانتهاك حرمات الله ، وقتل من قتل من سادات الأمة كسعيد بن جبير ، وحاصر ابن الزبير، وقد عاذ بالحرم الشريف ، واستباح الحرمة، وقتل ابن الزبير – مع أن ابن الزبير قد أعطاه الطاعة وبايعه عامة أهل مكة والمدينة واليمن وأكثر سواد العراق ، والحجاج نائب عن مروان ثم عن ولده عبد الملك ، ولم يعهد أحدٌ من الخلفاء إلى مروان ، ولم يبايعه أهل الحل والعقد – .

ومع ذلك ؛ لم يتوقف أحد من أهل العلم في طاعته والانقياد له فيما تسوغ طاعته فيه من أركان الإسلام وواجباته .

وكان ابن عمر – ومن أدرك الحجاجَ من أصحاب رسول الله ﷺ – لا ينازعونه ولا يمتنعون من طاعته فيما يقوم به الإسلامُ ويُكَمَّل به الإيمان . وكذلك من في زمنه من التابعين ؛ كابن المسيب ، والحسن البصري ، وابن سيرين ، وإبراهيم التيمي ، وأشباههم ونظرائهم من سادات الأمة .

واستمر العمل على هذا بين علماء الأمة من سادات الأمة وأئمتها ؛ يأمرون بطاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله ، مع كل إمام ؛ برٍّ أو فاجر ، كما هو معروف في كتب أصول الدين والعقائد .

وكذلك بنو العباس استولوا على بلاد المسلمين قهراً بالسيف ، لم يساعدهم أحد من أهل العلم والدين ، وقتلوا خلقاً كثيراً وجمّاً غفيراً من بني أمية وأمرائهم ونوّابهم ، وقتلوا ابن هبيرة أمير العراق ، وقتلوا

الخليفة مروان ، حتى نُقل أن السّفّاح قتل في يوم واحد نحو الثمانين من بني أمية ، ووضع الفُرُش على جثثهم وجلس عليها ، ودعا بالمطاعم والمشارب .

ومع ذلك ؛ فسيرة الأئمة ؛ كالأوزاعي ، ومالك ، والزهري ، والليث ابن سعد ، وعطاء بن أبي رباح مع هؤلاء الملوك لا تخفى على من له مشاركة في العلم والاطلاع .

والطبقة الثانية من أهل العلم ؛ كأحمد بن حنبل ، ومحمد بن إسماعيل ، ومحمد بن إدريس ، وأحمد بن نوح ، وإسحاق بن راهويه ، وإخوانهم .. وقع في عصرهم من الملوك ما وقع من البدع العظام وإنكار الصفات ، ودعوا إلى ذلك ، وامتحنوا فيه ، وقُتل من قتل ؛ كمحمد بن نصر ، ومع ذلك فلا يُعلم أن أحداً منهم نزع يداً من طاعة ولا رأى الخروج عليهم »[١] .

ويقول – رحمه الله – : « وأهل العلم متفقون على طاعة من تغلب عليهم في المعروف ، يرون نفوذ أحكامه ، وصحة إمامته . لا يختلف في ذلك اثنان ، ويرون المنع من الخروج عليهم بالسيف ، وتفريق الأمة ، وإن كان الأئمة فسقة ، ما لم يروا كفراً بواحاً ، ونصوصهم في ذلك موجودة عن الأئمة الأربعة وغيرهم وأمثالهم ونظرائهم »[٢] .

---

(١) « الدرر السنية في الأجوبة النجدية » (٧ / ١٧٧ – ١٧٨) .
(٢) « مجموعة الرسائل والمسائل النجدية » (٣ / ١٦٨) .

١٥ - الإمام الشوكاني - رحمه الله تعالى - :

يقول الإمام الشوكاني - رحمه الله - : «ولكنه ينبغي لمن ظهر له غلط الإمام في بعض المسائل أن يناصحه ، ولا يظهر الشناعة عليه على رؤوس الأشهاد ، بل كما ورد في الحديث أن يأخذ بيده ويخلو به ، ويبذل له النصيحة ، ولا يُذل سلطان الله ، وقد قدمنا في أول كتاب السير أنه لا يجوز الخروج على الأئمة ، وإن بلغوا في الظلم أي مبلغ ، ما أقاموا الصلاة ، ولم يظهر منهم الكفر البواح ، والأحاديث الواردة في هذا المعنى متواترة ، ولكن على المأموم أن يطيع الإمام في طاعة الله ، ويعصيه في معصية الله ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[١] .

١٦ - الإمام السعدي - رحمه الله - :

يقول الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - : «وأما النصيحة لأئمة المسلمين وهم ولاتهم من السلطان الأعظم إلى الأمير إلى القاضي إلى جميع من لهم ولاية صغيرة أو كبيرة فهؤلاء لما كانت مهماتهم وواجباتهم أعظم من غيرهم ، وجب لهم من النصيحة بحسب مراتبهم ومقاماتهم ، وذلك باعتقاد إمامتهم والاعتراف بولايتهم ، ووجوب طاعتهم بالمعروف ، وعدم الخروج عليهم ، وحث الرعية على طاعتهم ، ولزوم أمرهم الذي لا يخالف أمر الله ورسوله ، وبذل ما يستطيع الإنسان من نصيحتهم ، وتوضيح ما خفي عليهم فيما يحتاجون إليه في رعايتهم كل أحد بحسب حالته ، والدعاء لهم بالصلاح والتوفيق فإن صلاحهم صلاح لرعيتهم ، واجتناب سبهم والقدح فيهم ، وإشاعة

---

(١) السيل الجرار (٤ / ٥٥٦) .

مثالبهم ، فإن في ذلك شراً وفساداً كبيراً ، فمن نصيحتهم الحذر والتحذير من ذلك ، وعلى من رأى منهم ما لا يحل ؛ أن ينبههم سراً لا علناً بلطف وعبارة تليق بالمقام ، ويحصل بها المقصود ، فإن هذا مطلوب في حق كل أحد ، وبالأخص ولاة الأمر ، فإن تنبيههم على هذا الوجه فيه خير كثير وذلك علامة الصدق والإخلاص . واحذر أيها الناصح لهم على هذا الوجه المحمود أن تفسد نصيحتك بالتمدح عند الناس ، فتقول لهم : إني نصحتهم وقلت وقلت ، فإن هذا عنوان الرياء وعلامة ضعف الإخلاص ، وفيه أضرار أخر معروفة »[١] .

---

(١) الرياض الناضرة : ٤٩ ، ٥٠ .

كواكب الهداية :

تلك الكواكب المضيئة ، والدرر المنيرة ، والشموس المشرقة ، من العلماء الأفذاذ ، والعظماء الأخيار ، هي التي اهتدى الشيخ بهديها ، وسار على نهجها ، وارتوى من معينها ، بعد فقه الكتاب ، وفهم السنة، ولعلك رأيت أن تلك الآراء الناصعة ، والحجج الساطعة لم تكن لأناس عاديين ، ولا لعلماء مغمورين ، بل هي لثلة خيّرة ، وفئام نيّرة ، إنها لأناس عاشوا في وجدان الشيخ ، ومشى حبهم وعلمهم في عروقه ، وامتزج بدمه ، تفحص آراءهم ، وسبر أغوارهم ، واستظهر مؤلفاتهم ، واستلهم مقولاتهم، وهل كان يصدر الشيخ في علمه بعد النبي ﷺ إلا عن عمر وابن عمر – رضي الله عنهما – والإمام أحمد ، وابن تيمية ، وابن القيم ، وابن حجر ، وابن عبد الوهاب ، وأحفاده العلماء ، هؤلاء النجوم هم الذين هيمنوا على حياة الشيخ – رحمه الله – وتأثر بهم ، ومضى في ركبهم ، وهم القوم لا يشقى بهم جليسهم .

يا رائد العلم في هذا الزمان ويا ... مجدد العصر في علم وأعمال
حقاً فقد عرف التاريخ كوكبة ... مضيئة من صناديد وأبطال
مثل ابن حنبل أو مثل ابن تيمية ... أو البخاري في إسناده العالي
لكننا يا حبيب القلب نبصرهم ... كأنما مثلوا في شخصك الغالي

لماذا كل هذه النقول؟

لقد أكثرنا من النقولات عن أولئك العلماء النبلاء لثلاثة أمور هامة :

أ – لأهمية هذا الموضوع ، وشدة حساسيته ، وحاجة الأجيال إلى فهم

النظرة الشرعية الصائبة فيه ، حيث يترتب على ذلك قضايا مصيرية ، ومسائل حتمية ، فالجهل بها قد يدمر حصوناً منيعة ، ويحطم أسواراً رفيعة ، قد تراق به دماء ، وتحدث به فتن عمياء ، وتهدم معابد ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، وقد يودي أناس كثير بأنفسهم إلى التهلكة ، ويجرون أتباعهم إلى أسوأ معركة .

ب – لنبين مدى علم الشيخ ، وعمق فهمه ، وبعد نظره ، وحسن سياسته ، وبديع رئاسته ، وأحقية إمامته ، وأهلية زعامته ، فهو متبع لا مبتدع ، مهتدٍ لا معتدٍ ، موافق لا مخالف ، فمن حاول أن ينال من منهاجه ، أو ينتقص من إدراكه فإنما ينال من تلك السلسلة الذهبية الخالصة بدءاً بمحمد ﷺ ، وانتهاءً بعلماء الدعوة السلفية في العهد الحديث التي آتت أكلها ، وأعطت ثمارها .

جـ – إن تلك الأحاديث المتعددة ، والآراء المتنوعة ، والأحكام الكثيرة ، لا يخلو كل منها من إضافات جديدة ، وأبعاد مفيدة ، وفوائد أكيدة ، وفرائد عديدة ، فإذا قرأها القارىء ، وتأملها المنصف ، وسبرها طالب العلم ، تكونت لديه صورة واضحة ، وفكرة صالحة ، ونظرة رابحة ، وكبحت قوى جامحة ، قد تخبط خبط عشواء ، وتمضي في غيرما اهتداء ، وتجر ويلات من العناء ، ومتاهات من الشقاء ، إن تلك النصوص في مجملها ترسي دعائم متينة ، وتبني مناهج حصينة ، وتفيد دروساً مكينة ، سنذكرها في آخر هذا الفصل بإذنه تعالى .

٤ - أخذ العبر ممن غبر :

هذا هو المنطلق الرابع الذي انطلق منه الشيخ في تعامله وتعاونه مع ولاة الأمور ، وهو أخذ العبر النافعة ، والدروس الواسعة ، من قصص التاريخ ، وأحداث الزمان ، ونتائج الصراعات : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ** ﴾ (١) .

إن منازعة الأمر أهله ، ومحاولات التغيير بالقوة ، ومصارعات العلماء للساسة على مر التاريخ كانت نتائجها مرة ، وعواقبها مؤلمة ، وأحداثها مضنية ، والشريعة الإسلامية شريعة اللطف والرحمة ، واليسر والسهولة ، والسعة والفسحة ، واللطف والهوادة ، لا تأمر المرء أن يزج بنفسه إلى تهلكة ، أو يغامر بحياته في متلفة ، أو يتعرض من البلاء لما لا يطيق : ﴿ **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ** ﴾ (٢) ، ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ (٣) .

إن الشيخ يعرف من أحداث التاريخ أن توسيع هوة الخلاف بين العلماء والأمراء فيها خطر على الأرواح ، وزعزعة للأمن ، وزرع للفتن ، وصد لانتشار العقيدة ، وتحجيم لانطلاقة الإسلام ، وشواهد التاريخ ماثلة، ونتائج الخلاف بَيِّنة .

يقول ابن تيمية – رحمه الله – : « ولهذا كان المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف ، وإن كان

---

(١) سورة يوسف : ١١١ .
(٢) سورة المائدة : ٦ .
(٣) سورة البقرة : ٢٨٦ .

فيهم ظلم ، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي ﷺ لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة . فلا يدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما ، ولعله لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته »[١] .

٥ - دروس من الحاضر :

إضافة إلى الرصيد التاريخي لدى الشيخ فإنه قد عاصر أحداثاً عظيمة ، وفتناً كبيرة تصادمت فيها الدعوات الإسلامية مع ذوي السلطان فكانت الدائرة على الدعوة والدعاة . لم يغب عن الشيخ ما حل بالمسلمين في بلدان كثيرة ؛ من دماء ذهبت ، وأرواح فقدت ، ومخاوف أذهلت ، ومصائب أرعبت ، دون أي ثمرة للدين ، أو مصلحة للمسلمين ، بل حدث بسببها من الضرر ما لا يخفى على عاقل ، ثم هو يعرف أنه يعيش في مملكة كبيرة ، ذات قبائل متعددة ، وأهواءٍ متفرقة ، وعصبيات مختلفة ، ليس من السهولة ضمها تحت راية واحدة، وتوحيد آمالها ، وأهوائها ، وأفكارها ، فمن الله عليها برجل مثل الملك عبد العزيز - رحمه الله - فجمع شتاتها ، ووحد كيانها ، وبث الأمن والطمأنينة في ربوعها، فلو اختل زمام الأمن ، أو تأثر حبل الودّ ، أو تقهقر أرباب التعاون والتعامل لتجرعت هذه الجزيرة غصصاً من الأذى وأنواعاً من الردى ، وكؤوساً من الشقاء .

---

(١) « منهاج السنة النبوية » (٣ / ٣٩٠) .

٦ - التجربة الطويلة :

لم تصدر آراء الشيخ الموفقة ، وفتاواه المباركة إلا عن عمر مديد ، وتجربة عميقة ، وحياة حافلة بالبذل والعلم والعمل والمعرفة بالواقع ، والخبرة بدروب الحياة ، وأحوال الأمم، وتعامل الملوك والسلاطين ، فهو الذي عاش عهوداً كثيرة لثلة من الملوك ، وعدد من الزعماء وكمٍّ من الأمراء ، وقد عايش عن قرب ، ومارس عن كثب الحياة مع خمسة ملوك في المملكة العربية السعودية كانت كفيلة بإعطاء الشيخ حصيلة طيبة في حسن السياسة، وجميل التعامل مع الولاة ، وكان موفقاً محبوباً مكرماً معززاً مقدراً عندهم جميعاً ، وهم الملك عبد العزيز ، والملك سعود ، والملك فيصل ، والملك خالد – رحمهم الله جميعاً – ، وكذلك الملك فهد وفقه الله لكل خير .

كانت حياتك يا إمام زمانه ... نهراً يفيض لآلئاً وفرائدا
ساعات عمرك في الوجود سحائب ... بالخير تهطل راكعاً أو ساجدا
ولسوف يكتبك الزمان صحائفاً ... ولسوف ينشرك الخلود قلائدا
تسعون عاماً ما استكنت لهولها ... بل خضتها متجلداً ومجالدا
تسعون عاماً في الصلاح وفي التقى ... قضَّيْتها .. ما كنت يوماً هاجدا
تسعون عاماً يا إمام زمانه ... في خدمة الإسلام عمراً خالدا
تسعون عاماً يا وريث محمد ... تسعون عاماً ما ونيت مجاهدا

٧ - الطمع في الأجر :

كان الشيخ – رحمه الله – باحثاً عن الأجر ، مجتهداً في البذل ، طامعاً في الثواب ، مؤملاً في الوهاب ، كان في تعامله وتعاونه مع ولاة

الأمر يطمع في كسب قلوبهم ، وتثمير جهودهم ، وفي الفوز بالأجر حينما يكون دليلاً لهم على خير ، آمراً لهم بمعروف ، ناهياً لهم عن منكر ، يعرف مقدار الخير الذي يجريه الله على يد الملك والأمير والوزير إذا أصلح الله قلبه ، وبارك في عمله ، فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

يقول – رحمه الله – بعد قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾[1] : « فمن أراد من أهل العلم أن يكون من أتباعه على الحقيقة فعليه بالدعوة إلى الله على بصيرة حتى يكون من أتباعه على الحقيقة ينفع الناس وينفع نفسه ، ثم له بذلك مثل أجورهم ولو كانوا ملايين ، هذه نعمة عظيمة وفائدة كبيرة لك يا عبد الله الداعي إلى الله ، لك مثل أجور من هداه على يديك ، لقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » ، وهذا أمر عظيم من دعا إلى خير فله مثل أجر فاعله ، دعوت كافراً فأسلم يكون لك مثل أجره ، دعوت مبتدعاً فترك البدعة يكون لك مثل أجره ، دعوت إنساناً يتعامل بالربا فأطاعك يكون لك مثل أجره ، دعوت إنساناً يتعاطى المسكر فأجابك يكون لك مثل أجره ، دعوت إنساناً عاقاً لوالديه فأطاعك وبر والديه يكون لك مثل أجره ، دعوت إنساناً يغتاب الناس فترك الغيبة يكون لك مثل أجره ، وهكذا .. هذا خير عظيم : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » .

والحديث الآخر يقول ﷺ : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر

---

(١) سورة يوسف : ١٠٨ .

مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً » ، وهذا الحديث من أصح الأحاديث ، وقد رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

فأنت يا عبد الله إن دعوت إلى خير فلك مثل أجور المهتدين على يديك ، وإن دعوت إلى شر فعليك مثل أوزارهم وآثامهم ، نسأل الله العافية .

وفي الصحيحين عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال لعلي لما بعثه لخيبر : « فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » ، وهذه الفائدة العظيمة ، واحدمن اليهود يهديه الله على يده خير له من حمر النعم ، وأنت كذلك ذهبت إلى قرية من القرى أو مدينة من المدن أو قبيلة من القبائل فدعوتهم إلى الله ، وهدى الله على يديك واحداً خير لك من حمر النعم ، والمقصود خير من الدنيا وما عليها ، وهكذا لو كنت في بلاد فيها كفار فدعوتهم وهداهم الله على يديك لك مثل أجورهم ، ولك بكل واحد خير من حمر النعم ، وهنا كفار يوجدون من العمال فإذا تيسر للعالم الذهاب إليهم ودعوتهم فهداهم الله على يديه أو هدى بعضهم يكون له مثل أجورهم ، فالدعوة إلى الله في كل مكان لها ثمراتها العظيمة مع الكفار ومع العصاة ومع غيرهم ، قد يكون غير عاص لكن عنده كسل وعدم نشاط فإذا سمع دعوتك زاد نشاطه في الخير ومسابقته إلى الطاعات فيكون لك مثل أجره »[١] .

---

(١) الفتاوى ، جـ٦ ، ص٤١٥ .

٨ - المعذرة إلى الله :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾[١] .

يعلم الشيخ - رحمه الله - أن هؤلاء الأمراء والحكام لن يتنزل الوحي عليهم ، ولن تأتي إليهم عظة من السماء ، ولن يدلف العلم والتعليم إلى قلوبهم بنفسه ، وكذلك عموم الخلق ، بل لا بد من قائم لله بحجة ، ولا بد من علماء يمضون على نهج الأنبياء في تبليغ الرسالة ، وإسداء النصيحة ، وتعليم الشريعة ، وإقامة الحجة ، ليحيا من حيي عن بينة ، ويهلك من هلك عن بينة .

إن كثيراً من الناس ؛ بل من الدعاة ؛ بل خواص طلبة العلم ، يريد للملوك والأمراء والوزراء والكبراء أن يكونوا هداة مهتدين ، وزهاداً عابدين ، من دون أن تسدى لهم نصيحة أو توجه لهم موعظة ، أو تقام عليهم حجة ، مع أن الدعاة في تجاربهم الدعوية يرون أن عامة الناس الذي يملكون توجيههم ، ويستطيعون نصحهم ، ويتفانون في دعوتهم قلَّ أن يجدوا فيهم من يستجيب للدعوة ، ويرضخ للموعظة ، فكيف بمن لا يُنصح أصلاً ، ولا يعلم قطعاً ، ولا يخالط دهراً؟!! .

إن من أوجب الواجبات على الداعي إلى الله ، ومن أهم أهداف

---

(١) سورة الأعراف ، الآيتان : ١٦٤ ، ١٦٥ .

الدعوة هو إقامة الحجة على الناس ، قال تعالى : ﴿ **رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** ﴾ (١) .

وفي الحديث : « لا أحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين » (٢) .

وببعثة الرسل : « قطع الله حجة كل مبطل ألحد في توحيده وخالف أمره بجميع معاني الحجج القاطعة عذره ، إعذاراً منه بذلك إليهم لتكون لله الحجة البالغة عليهم وعلى جميع خلقه » (٣) .

٩- قناعة الشيخ بدولة التوحيد :

وكان ملوك آل سعود رداءً ... له في النائبات وفي الجلاد
بصير بالعواقب لم تثره ... أباطيل من الجنف المعادي

من منطلقات الشيخ في تعاونه وتعامله مع الولاة في المملكة العربية السعودية قناعة الشيخ بهذه الدولة ، واحترامه لحكامها ، فهو مهما يكن لديه من معرفة لبعض جوانب التقصير التي يتعرض لها البشر ؛ فإنه يعلم أنها محافظة على أصل الدين ، متميزة بعقيدة التوحيد ، محاربة للبدع والمنكرات ، موحدة للقبائل المتفرقة ، مهيئة للسبل الخيرة ، مقدرة لأهل العلم ، مقدمة للشريعة ، وكان يشكر لها تلك الجوانب ، ويشيد بها دائماً وأبداً ، ومن ذلك قوله - رحمه الله - : « وإني على يقين بأن

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٦٥ .
(٢) صحيح البخاري كتاب التوحيد الباب (٢٠) .
(٣) تفسير الطبري (٩/٤٠٨) تحقيق محمود شاكر .

حكومة المملكة العربية السعودية السنية وفقها الله لما فيه رضاه ونصر بها الحق ، لن تتوانى في دعم توصياتكم ومقرراتكم فيما يخدم الإسلام والمسلمين كما هي عادتها في هذا الشأن ، وإن من جهودها منذ عهد الملك عبد العزيز – رحمه الله – نشر كتب السلف والعناية بها وتدريسها ، ومعاونة الجماعات والأفراد الذين يهتمون بها ويحرصون على انتشارها مشهورة معلومة لدى الخاص والعام ، وذلك من فضل الله عليها ، ومما تشكر عليه هذه الدولة التي قامت على مذهب السلف ، وطبقته في مجتمعها »[١] .

لقد كان عالماً بما عاشته الجزيرة من فرقة وشتات ، وحروب وويلات ، وبدع ومخالفات ، ثم تبدل حالها ، وحسن مآلها ، وتوحد كيانها ، وعظم بنيانها ، وهو يراها دولة سنيّة ، لها في رقبته بيعة .

والشيخ في تعامله المميز مع ولاة الأمر في هذه البلاد يرسم نهجاً واضحاً جلياً لكل من أراد لدعوته النجاح ، ولأسلوبه الفلاح ، وهو ينطلق من أسس ثابتة ، ومن نظرة شرعية متعمقة ، يوازن بين المصالح والمفاسد ، ويحرص على لم الشمل وجمع القلوب ، وانتقاء أخف الضررين ، وتعامله ذلك كان نتيجة خبرة طويلة ، وعمر مديد ونهج فريد .

ويقول – رحمه الله – : « ونحن بحمد الله في دولة إسلامية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتدعو إلى الله عز وجل وتحكم شرعه ، فالواجب التعاون معها على الخير وعلى إزالة ما يوجد من الشر بالطرق

---

(١) الفتاوى ، جـ ١ ، ص : ٣٨٣ .

الحكيمة والأسلوب الحسن مع الإخلاص لله سبحانه والصدق في العمل وعلاج الأوضاع المحتاجة إلى العلاج بالطرق الشرعية بحسب الطاقة فيما بيننا وبين ولاة الأمور وفقهم الله بالمكاتبة والمشافهة وبالتعاون مع العلماء بالمناصحة لهم ، وهكذا يجب على الدعاة إلى الله سبحانه في جميع الدول أن يعالجوا الأوضاع المخالفة للشرع المطهر بالحكمة والموعظة الحسنة والأسلوب الحسن ، ويتعاونوا مع المسئولين على الخير ويتواصوا بالحق مع الرفق والتعاون مع الدولة بالحكمة حتى لا يؤذى الدعاة ، وحتى لا تعطل الدعوة ، فالحكمة في الدعوة بالأسلوب الحسن وبالتعاون على البر والتقوى هي الطريق إلى إزالة المنكر أو تقليله وتخفيف الشر ، ومن أهم ذلك الدعوة إلى تحكيم الشريعة الإسلامية ، فهذا هو الطريق إلى العلاج والإصلاح ولو لم يحصل المطلوب كله لكن يحصل بعض الخير والتجاوب من الحكومة التي ينكرون عليها فيقل الشر ويكثر الخير»[١] .

ويقول – رحمه الله – : «ومن نعم الله العظيمة على المسلمين في هذه المملكة – أعني المملكة العربية السعودية ، وفي جميع بلاد المسلمين – أن قيض لهم من يقوم بهذا الدين كلما خبا نوره وتزاحمت قوى الكفر وخيم على المسلمين الجهل ، فيبعث الله من القادة الصالحين والعلماء والأفاضل والحكام المخلصين من يقوم بنصر هذا الدين وإحياء ما أماته الجهلاء من رسومه ، ونشر العلم وتعليمه ، وتحكيم شريعة الله وكبت الباطل وأهله .

ومن فضل الله على هذه الجزيرة أن قام فيها الإمام الشيخ محمد بن

---

(١) الفتاوى ، جـ٧ ، ص : ٢٩٩ .

عبد الوهاب ، والإمام محمد بن سعود – رحمة الله عليهما – ، وتعاهدا على نصرة هذا الدين ، وصدقا في ذلك ، فنصرهما الله ومكن لها في الأرض ، وقامت بذلك حلق العلم بالمساجد ، وانتشر التدريس فيها ، وأخذ العلماء أماكنهم في توعية الناس بدينهم وتعليمهم أحكامه وشرائعه ، واستمرت على ذلك حتى انتشر العلم في أرجاء البلاد والبلدان المجاورة ، وفتحت المدارس والمعاهد العلمية ، وانتشرت في عدة قرى ومدن في هذه الجزيرة العربية ، وكذا الكليات وغيرها من وسائل نشر العلم .

كما أن من فضل الله أن وفق ولاة الأمر للأمر بفتح بعض هذه المعاهد خارج المملكة العربية السعودية لتقوم بإبلاغ الحق والخير ونشر العقيدة الصحيحة الصافية الخالية من شوائب الشرك والوثنية ، وتعليم أحكام الشريعة الغراء ، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقهم للإكثار منها في جميع البلدان ، وأن يوفق القائمين عليها لاختيار الأشخاص الأتقياء والدعاة المخلصين لإدارة هذه المعاهد والتعليم فيها ، كما هو الواقع الآن »[١] .

موقف الشيخ من الزعماء والرؤساء والأمراء خارج البلاد :

هذا رأي الشيخ في كل البلدان الأخرى مهما كان فيها من الظلم والجور ، والقمع والاستبداد ، طالما أن التكافؤ معدوم، وكانت تلك نصائحه وتوجيهاته لكل الدعاة وطلبة العلم من أنحاء الدنيا ، استمع

---

(١) الفتاوى ، جـ٦ ، ص٢٤٦ .

إليه بعد أن أورد بعض الآيات والأحاديث في وجوب السمع والطاعة لولاة الأمر ، ومنها قوله ﷺ : « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله »، وقال : « إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان »[١] ، فهذا يدل على أنهم لا يجوز لهم منازعة ولاة الأمور ولا الخروج عليهم إلا أن يروا كفراً بواحاً عندهم من الله فيه برهان[٢] .

وما ذاك إلا لأن الخروج على ولاة الأمور يسبب فساداً كبيراً وشراً عظيماً ، فيختل به الأمن ، وتضيع الحقوق ، ولا يتيسر ردع الظالم ، ولا نصر المظلوم ، وتختل السبل ، ولا تؤمن فيترتب على الخروج على ولاة الأمور فساد عظيم ، وشر كثير إلا إذا رأى المسلمون كفراً بواحاً عندهم من الله فيه برهان ، فلا بأس أن يخرجوا على هذا السلطان لإزالته إذا كان عندهم قدرة ، أما إذا لم يكن عندهم قدرة فلا يخرجوا ، أو كان الخروج يسبب شراً أكثر فليس لهم الخروج رعاية للمصالح العامة والقاعدة الشرعية المجمع عليها : (أنه لا يجوز إزالة الشر بما هو أشر منه بل يجب درء الشر بما يزيله أو يخففه) .

وأما درء الشر بشر أكثر فلا يجوز بإجماع المسلمين فإذا كانت هذه الطائفة التي تريد إزالة هذا السلطان الذي فعل كفراً بواحاً وعندها قدرة تزيله بها ، وتضع إماماً صالحاً طيباً من دون أن يترتب على هذا فساد كبير على المسلمين ، وشر أعظم من شر هذا السلطان ، فلا بأس ، أما إذا كان الخروج يترتب عليه فساد كبير واختلال الأمن وظلم الناس واغتيال

---

(١) أخرجه مسلم والنسائي وابن أبي عاصم وغيره .
(٢) انظر الفتح (١٣/ ٩ - ١١) .

من لا يستحق الاغتيال إلى غير هذا من الفساد العظيم . فهذا لا يجوز ، بل يجب الصبر والسمع والطاعة في المعروف ، ومناصحة ولاة الأمور والدعوة لهم بالخير والاجتهاد في تخفيف الشر وتقليله ، وتكثير الخير ، هذا هو الطريق السوي الذي يجب أن يسلك ؛ لأن في ذلك مصالح للمسلمين عامة ، ولأن في ذلك تقليل الشر وتكثير الخير ، ولأن في ذلك حفظ الأمن وسلامة المسلمين من شر أكثر ، نسأل الله للجميع التوفيق والهداية »[١] .

ويقول – رحمه الله في إحدى محاضراته : « والعوامل تتعدد بحسب ما تدعو إليه، وما تنهى عنه ، فأنت تجتهد في اختيار العامل الذي تقوم به العامل الشرعي الذي عرفت أصله ، وعرفت مأخذه من كتاب الله ، من سنة رسول الله ﷺ ، فأنت تدعو الناس إلى دين الله ، وإلى أداء فرائض الله ، وإلى ترك محارم الله على الطريقة التي سلكها رسول الله ﷺ .

والعوامل والمجتمعات تختلف ، فالمجتمع المحارب للدين ، والذي ليس فهي قائد يعينك على الإصلاح والتوجيه تعمل فيه كما عمل رسول الله ﷺ في مكة ، تدعو إلى الله بالحسنى وبالأسلوب الحسن ، وبالكلمات اللينة ، حتى يدخل ما تقول في القلوب، وحتى يؤثر فيها ، فيحصل بذلك انجذاب القلوب إلى طاعة الله وتوحيده ، وتتعاون مع إخوانك ومن سار على نهجك في دعوة الناس وإرشادهم بالطرق اللينة في المجتمعات التي يمكن حضورها حتى يثبت هذا الإيمان في القلو ب، وحتى ينتشر

---

(١) مراجعات في فقه الواقع السياسي ، ص ٢٠٠ .

بين الناس بأدلته الواضحة .

وفي المجتمع الإسلامي ، ووجود القائد الإسلامي الذي يعينك يكون لك نشاط أكثر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والاتصال بالمسئولين عن وجود المعاندين ، والذين يخشى من عنادهم الخطر على المجتمع ، وتكون مع ذلك سالكاً المسلك القويم بالرفق والحكمة والصبر ، كما قال عز وجل : ﴿ **وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ .

فلا بد من صبر وتواصٍ بالحق ، ودعوة إليه ، حتى تنجح في مهمتك وكذلك المسئولون والكبار الذين يخشى من شرهم على الدعوة ، ينصحون بالأسلوب الحسن ، ويوجهون ، ويدعون بالكتابة والمشافهة من أعيان الأمة ورجالها وقادتها وأمرائها ، كما قال سبحانه : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [١] .

وكما قال سبحانه لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام لما بعثهما إلى فرعون : ﴿ **فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾[٢] .

فالواجب على المصلحين والدعاة : أن يسلكوا هذه السبيل ، وأن يعالجوا مشكلات المجتمع بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يخاطبوا كل إنسان بما يليق به ، حتى ينجحوا في مهمتهم ، ويصلوا إلى غايتهم »[٣] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٢) سورة طه : ٤٤ .

(٣) الفتاوى ، جـ ١ ، ص : ٢٥٠ .

ويقول – رحمه الله – حينما سئل عن الحاكم الذي يسن القوانين الوضعية ويعمل بها كيف يكون التعامل معه ، قال : « نطيعه في المعروف وليس في المعصية حتى يأتي الله بالبديل »[١] .

١٠ – الصبر :

يندر أن يمر يوم من الأيام إن لم تكن ساعة من الساعات ، وأنت لا تسمع الشيخ يكرر هذه السورة مذكراً بها وناصحاً ، وهي قوله تعالى : ﴿ **وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ .

وهل كانت حياة الشيخ بمجموعها إلا مثالاً رائعاً للصبر بكل أنواعه ، وجميع أشكاله؟ فما أعظم الصبر وما أجمل عاقبته ، فهو مطيّةٌ لا تكبو ، وصارم لا ينبو ، وحصن لا يهدم ، وَحَدٌّ لا يثلم ، الصبر أفضل عُدَّة على الشدة ، وأكرم وسيلة لنيل الفضيلة ، وأجمل أسلوب لطمأنينة القلوب ، الصبر حسن توفيق ، وأمارة سعادة ، ودليل رشادة ، وعنوان إيمان ، ونموذج إذعان ، الصبر رضاً بالقدر ، وتحمل للبلاء ، وتسليم للجبار ، واستجابة لمقدر الأقدار .

الصبر ثبات القلب عند موارد الاضطراب ، وحبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع .

والحادثات إذا أصابك بؤسها فهو الذي أدراك كيف نعيمها

إذا ادْلهمّت الأمور ، واسودت الحياة ، وأظلمت الدنيا فالصبر ضياء! .

---

(١) الفتاوى ، جـ٧ ، ص : ١٢٠ .

إذا عظم الجزع ، واشتد الخوف ، وهيمن القلق ، فالصبر جلاء!.

إذا انسدت المطالب ، وعظمت المصائب ، وكثرت الرزايا ، وزادت البلايا ، فالصبر دواء!.

إذا نزل المكروه ، وحل الأمر المخوف ، واحتيج لمصارعة الحتوف ، فالصبر التجاء!.

إذا أصبح الدين في غربة ، والإسلام في كربة ، وعمت المعاصي ، وهيمنت الشهوات ، وعظمت الشبهات ، فالصبر عزاء!.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾(١)

اعلم أن النصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، واليسر مع العسر. بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الأمور ، وعند انسداد الفُرَج تبدو مطالع الفَرَج ، ومن يتصبر يصبره الله .

الصبر دليل على عظمة الإرادة ، وقوة العزيمة ﴿**وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾(٢).

لقد فهم الشيخ كلام ربه جل وعلا حين قال : ﴿**وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾(٣)، وقد اقتدى بالنبي ﷺ وبالأنبياء جميعاً في صبرهم لما يعترضهم في طريق الدعوة إلى الله تعالى وإن كان

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٣ .
(٢) سورة الشورى ، الآية ٤٣ .
(٣) سورة إبراهيم : ٥.

الأنبياء مروا بأنواع من البلاء ، وأعداد من المصائب ، وأشكال من النوازل، فإن البلاء كلّه ، والامتحان أشدّه ، والنكال أعظمه ، والعناء أوجعهُ ، والعنت أشقّهُ ، تعرض له أكرم إنسان ، وأعز مخلوق، وأطهر بشر ، وهو محمد ﷺ وقد أمره مولاه جل وعلا بالصبر في آيات كثيرة ، وبين له أن ذلك دأبُ المرسلين قبله ، فطمأن فؤاده بأخبارهم ، وقوى عزيمته بعرض سيرهم ، وقال سبحانه : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ** ﴾ (١) .

تفننوا في إيذائه ، وتمادوا في معاندته ، وهو صابر محتسب يلهج إلى السماء بقوله : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

ولقد أخذ الشيخ بنصيحة نبيه ﷺ ، حيث يقول : « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتته جاهلية »(٢) .

وعن حذيفة بن اليمان – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : « تسمع وتطيع للأمير ، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك »(٣) .

استمع إليه – رحمه الله – حيث يقول : « وليس هناك طريق أصلح للدعوة من طريق الرسل ، فهم القدوة وهم الأئمة وقد صبروا ، صبر نوح على قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وصبر هود ، وصبر صالح ، وصبر شعيب ، وصبر إبراهيم ، وصبر لوط ، وهكذا غيرهم من الرسل ، ثم

---

(١) سورة الأحقاف ، الآية ٣٥ .
(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري / كتاب الأحكام الباب ٤ (١٣ / ١٢١) .
(٣) رواه مسلم ، كتاب الأمارة ، الحديث رقم ٥٢ .

أهلك الله أقوامهم بذنوبهم ، وأنجى الله الأنبياء وأتباعهم ، فلك أيها الداعية أسوة في هؤلاء الأنبياء والأخيار ، ولك أسوة بالنبي محمد ﷺ الذي صبر في مكة وصبر في المدينة على وجود اليهود عنده والمنافقين ، ومن لم يُسلم من الأوس والخزرج حتى هداهم الله وحتى يسر الله إخراج اليهود ، وحتى مات المنافقون بغيظهم ، فأنت لك أسوة بهؤلاء الأخيار فاصبر واصبر واستعمل الرفق ودع عنك العنف ودع كل سبب يضيق على الدعوة ويضرها ويضر أهلها . واذكر قوله تعالى يخاطب نبيه محمداً ﷺ : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ** ﴾[1] » .

١١ - الموازنة الصعبة :

لا شك في أن الشيخ أبدع إبداعاً متألقاً ، ونجح نجاحاً باهراً قل أن تجد له مثيلاً ، وذلك أن العلماء الأجلاء الذين مضى الشيخ على رأيهم في تعامله وتعاونه مع الولاة كان كثير منهم بعيدين عن دائرة الولاة والحكام، مهتمين بالعلم والتعليم، منصرفين إلى تعليم الناس ، وتثقيف الشعوب ، وخدمة العلم وطلابه ، وربما كان لبعضهم اتصال يسير ببعض الولاة في عصره من باب المناصحة ، أو الزيارة اليسيرة، أما الشيخ فهو عنصر مهم في كيان الدولة ، وهو أيضاً شريان نابض في قلب الأمة ، ومع ذلك فقد فاز بحب هؤلاء وهؤلاء ، وأرضى هؤلاء وهؤلاء ، وقدر على القيام بواجب هؤلاء وهؤلاء ، وذلك هو التوفيق الرباني العظيم .

يقول الدكتور خليل الخليل : « اختلفت مناهج العلماء والدعاة في

---

(١) الفتاوى ، جـ٦ ، ص٤١٨ .

القديم والحديث بشأن معادلة صعبة معقدة ألا وهي التعامل مع العوام والتفاهم مع الحكام ؛ فالبعض غلب الجانب الأول وأعطاه جل اهتمامه وبذلك فقد الجانب الثاني ؛ والبعض الآخر على النقيض من ذلك ، غلب الجانب الثاني فاسترضاه ومالاه فكسب ثقته وأحياناً لم يكسب شيئاً ففقد الجانب الأول وقلّ إن لم يكن ندر – على الأقل في العصر الحديث – من استطاع أن يتعامل مع الجانبين في آن واحد بنجاح . حقق الفقيد المستحيل أو لنقل « المعجزة » فاستطاع – رحمه الله – أن يتعامل مع العوام على ما فيهم من سذاجة وكلالة وتعامل مع الحكام على ما فيهم من حساسية المسئولية ولم يفقد نفسه في المعركة ، ولم يتنازل عن مبادئه للترضية .

وكأنه هيأه الله القوي العزيز للقيام بهذا الدور في زمن اختلطت فيه المفاهيم وتشابكت فيه خطوط المنطلقات الفكرية ، وتفاقمت فيه المشكلات .

إنه كان « الميزان » وكلمته هي الفصل في النزاع تدمغ الباطل وترفع الخلاف . إن الدين في عقله واضح ، والإيمان في قلبه راسخ ، والحق حق بصرف النظر عن مصدره والباطل باطل بصرف النظر عن حامله ، ولا مجال للحسابات الشخصية لدى سماحته – رحمه الله – .

إنه مع عامة الناس صباح مساء ، فالمستفتون والدعاة يستطيعون التحدث معه والمناقشة لما يراه والأخذ والرد ليعرفوا « بدقة » وجهة نظره وليطمئنوا إلى دينهم الذي يدينون به وهو لا يكل ولا يملّ من الشرح والبيان ، بل إنه يشجع طلابه على بذل الجهد والسعي لمعرفة الحق .

استطاع أن يحشد للدين طاقات الشباب ، واستطاع أن يوجههم الوجهة الصالحة، واستطاع أن يكبح جماحهم بالعلم والتجرد والمتابعة التي استمرت عشرات السنين ، ثم استطاع أن يعلم الكبار في المساجد والمجالس منذ أن كان قاضياً في محافظة الدلم التي بزغ فيها نجمه ، فكان نموذجاً للقاضي العادل ، والمصلح الحكيم والمربي الفاضل .

يعرف سماحته – رحمه الله – أنساب الجزيرة العربية وعائلاتها وقبائلها ، فتعامل مع الجميع بحب واحترام حاضرة وبادية ، من غير تفرقة على أساس إقليمي أو أسري ، الجميع لديه أحباب في الله .

يملك – رحمه الله – مواهب القيادة من الذكاء والجلد والفراسة ، كما أنه قادر على تفسير الأحلام ويقرأ على المرضى . وكان يسلك منهج علماء السلف الأبرار ، كل ذلك لله لا للمباهاة . لم يسخر مواهبه لجمع حطام الدنيا وإنما سخرها لنشر العلم والذود عن الحق .

وكان – رحمه الله – قوياً على العامة وقادراً على أن يسمعهم مالا يحبون ، وهذا يتطلب قوة نفسية وتجرداً للحق . هنالك علماء ودعاة قادرون على أن يقفوا أمام الحكام مواقف قوية ولكنهم ضعفاء أمام العوام خشية أن يخسروهم . أما الفقيد فهو قوي بالحق مع العوام ومع الحكام .

تعامل – رحمه الله – مع السياسة والسياسيين ، سواء كانوا أمراء مناطق ، أو ملوكاً ، أو رؤساء دول فكانوا مقدرين له ، ومحترمين لشخصيته المتميزة التي تدخل في مضمار «السهل الممتنع» .

عرف عنه أنه عالم سمح متجرد واضح ، مما سهل على الجميع التعامل معه والنزول إلى رأيه في كثير من الأحيان . لقد عاصر الملك

عبد العزيز – رحمه الله – ، وكان يلتقي به في محافظة الدلم عندما يزور المنطقة ، وتعامل مع الملك سعود والملك فيصل والملك خالد رحمهم الله ، وكانوا جميعاً محبين له ، مستنيرين بعلمه ، مسترشدين بتوجيهاته ، مستعينين بطلابه واثقين من نصائحه .

تصدى سماحة الفقيد لتحقيق ما يشبه « المعجزة » فكان « ملاذاً » للعامة عند الخطوب وكان « مرجعاً » للدولة عند الاختلاف ، فتحقق بعون الله وتوفيقه « الانسجام التاريخي » الفريد بين العلماء والأمراء ، بين المؤسسة السياسية والمؤسسة الدينية .

لا يعني ذلك أنه لم تمر أوقات عصيبة ، ولا يعني ذلك أن الكمال متحقق ، ولكن ذلك يعني أن النيات صادقة ، وأن المساعي ناجحة، وأن آلية التكامل متأصلة فحمى الله المملكة من شرور الفرقة ومن فتنة الاختلاف »[١] آهـ .

١٢ – تغليب الخير على الشر :

من منطلقات الشيخ في تعاونه وتعامله مع ولاة الأمر تغليب الخير وتشجيعه ودعمه وشكره ، فما دام الخير هو السائد ، والطيب هو الظاهر، فإن تلك محمدةٌ ينبغي الاحتفاظ بها كرصيد ممدوح ، والسعي في تنميتها وتقويتها ، والاجتهاد في قمع الشر وتحجيمه ، ومحاربته وترغيمه .

---

(١) جريدة الجزيرة العدد (٩٧٣٠) .

فهو يعمل بالقاعدة الشرعية العادلة : (المنصف من اغتفر قليل خطأ المرء بكثير صوابه) ، ثم هنالك أصول عظيمة هي رأس كل خير ، وأساس كل فلاح ، كعقيدة التوحيد ، وإقامة الصلوات ، فإن وجودها سبب كبير في فلاح الأمم ، ورفع راية الخير ، وتقليص روافد الشر ، واستجلاب عطف الواحد الأحد .

يقول الشيخ – رحمه الله – : « الواجب على المسلمين حكومة وشعباً في هذه البلاد أن يشكروا الله سبحانه وتعالى على ما من به عليهم من نعمة الإسلام ونعمة الأمن ، وأن يتواصوا بذلك دائماً ، ويكون الشكر بأداء الفرائض وترك المحرمات والوقوف عند حدود الله ، هذا هو الشكر ، كما قال تعالى : ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ** ﴾[١] .

وقال سبحانه : ﴿ **عْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾[٢] فالواجب هو الشكر الحقيقي قولاً وعملاً وعقيدة ، فيشكر كل فرد الله بقلبه وقوله وعمله ، ويخافه ويرجوه ويتحدث بنعمه جل شأنه ، كما قال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾[٣] .

كما يجب الشكر بالعمل وذلك بأداء الفرائض وبترك المحرمات التي حرمها الله من الزنى والسرقة والعقوق وقطع الأرحام والربا والغيبة والنميمة إلى غير ذلك من المعاصي فهذا كله من الشكر »[٤] .

---

(١) سورة البقرة : ١٥٢ .
(٢) سورة سبأ : ١٣ .
(٣) سورة الضحى : ١١ .
(٤) الفتاوى ، جـ ٧ ، ص ١٢٥ .

ويقول داعياً ومشجعاً للجوانب الخيرة : « وإن حكومة هذه البلاد وفقها الله ، تشكر كثيراً على موافقتها على إقامة هذا المؤتمر ، وعلى دعمها له بكل ما يحتاج إليه ، وعلى رعايتها له ، كما هي بحمد الله تدعم كل ما يتعلق بالدعوات والقضايا الإسلامية ، وجميع ما يتعلق بالإسلام ، فلها بحمد الله جهود مشكورة ، وأعمال جليلة في دعم قضايا المسلمين وإعانة مؤسساتهم ومدارسهم وجمعياتهم ، والدعاة إلى الله عز وجل في كل مكان ، فجزاها الله عن ذلك خيراً ، وبارك في أعمالها وزادها من فضله ، ونشر بها الدعوة الإسلامية في كل مكان ، وأصلح لها البطانة ، وكتب لها التوفيق من عنده »[١]

ويقول – رحمه الله – : « فأوصي إخواني العلماء وطلبة العلم وسائر المؤمنين بأن يتذكروا هذا الكيد ، وأن يعملوا بموجب هذه الذكرى حتى يسدوا كل الذرائع التي يتذرع بها العدو لأجل الكيد لنا وتمزيق شملنا ، كذلك أنصح لطلبة العلم بالنظرة السليمة إلى الأمور والأحوال العامة ، فإن الخير والصلاح في بلادنا كثير ، نحمد الله تعالى على ذلك وندعوه جل وعلا أن يزيدنا من فضله وكرمه ، وأن يوفقنا وولاة أمرنا لكل ما يرضيه وينفع عباده ويجب أن نعرف هذا الخير والصلاح ؛ لأن ذلك من أسباب شكر الله على نعمه وطلب المزيد من فضله ، ثم بعد ذلك ننظر في الأخطاء لنعالجها بالقرآن الكريم وحكمته وهديه وإرشاده ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴾[٢] وهكذا سيرة النبي ﷺ

---

(١) الفتاوى ، جـ ٢ ، ص ٣٣٤ .

(١) سورة الإسراء : ٩ .

في دعوته وإبلاغه الناس فيها الخير العظيم والدلالة على الطريق القويم والأسلوب المفيد في الدعوة والتوجيه ، كما سبق بيان ذلك .

ومن أعظم وسائل النصح والقضاء على أسباب الشر التعاون مع ولاة الأمر في الحق وإصلاح الأوضاع ، زادهم الله من التوفيق والهداية إلى أحسن طريق ، وأصلح بهم العباد والبلاد ، وجعل التوفيق للحق حليفهم في الأقوال والأعمال إنه جواد كريم ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وأتباعهم بإحسان إلى يوم الدين»[١] .

وإليك هذه الكلمات الجامعة ، التي تجلي نظرة الشيخ – رحمه الله – العميقة العريقة ، ونهجه المتين في التعاون والتعامل مع ولاة الأمور ، يقول – رحمه الله – : «ومعلوم ما يحصل من ولاة الأمر المسلمين من الخير والهدى والمنفعة العظيمة ؛ من إقامة الحدود ، ونصر الحق ، ونصر المظلوم، وحل المشاكل ، وإقامة الحدود ، والقصاص ، والعناية بأسباب الأمن ، والأخذ على يد السفيه والظالم ، إلى غير هذا من المصالح العظيمة ، وليس الحاكم معصوماً ، إنما العصمة للرسل – عليهم الصلاة والسلام – فيما يبلغون عن الله تعالى ، لكن الواجب التعاون مع ولاة الأمور في الخير ، والنصيحة فيما قد يقع من الشر والنقص ، هكذا فهم المؤمنون ، وهكذا أمر الرسول ﷺ . أمر بالسمع والطاعة لولاة الأمور ، والنصيحة لهم ، كما قال رسول الله ﷺ : «إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويسخط لكم ثلاثاً : يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله

---

(١) الفتاوى جـ٧ ، ص : ٢٥٠ – ٢٥١ .

أمركم »[١] الحديث .

ويقول ﷺ : « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة » قالوا يا رسول الله : لمن؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم »[٢] .

وقال – عليه الصلاة والسلام – : « من ولي عليه والٍ فرآه يأتي شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ، ولا ينزعن يداً من طاعة »[٣] .

ولما سئل عن ولاة الأمر الذين لا يؤدون ما عليهم قال ﷺ : « أدوا الحق الذي عليكم لهم وسلوا الله الذي لكم »[٤] .

فكيف إذا كان ولاة الأمور حريصين على إقامة الحق ، وإقامة العدل ، ونصر المظلوم، وردع الظالم ، والحرص على استتباب الأمن ، وعلى حفظ نفوس المسلمين ودينهم وأموالهم وأعراضهم ، فيجب التعاون معهم على الخير وعلى ترك الشر ، ويجب الحرص على التناصح والتواصي بالحق حتى يقل الشر ويكثر الخير .

وقد من الله على هذه البلاد بدعوة الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب – رحمة الله عليه – ومناصرة جد هذه الأسرة الإمام محمد بن

---

(١) رواه الإمام أحمد في باقي مسند المكثرين برقم (٨٤٤٤) .
(٢) رواه الترمذي في البر والصلة برقم (١٨٤٩) .
(٣) رواه مسلم في الإمارة برقم (٣٤٤٨) .
(٤) رواه مسلم في الفتن برقم (٢١١٦) .

سعود – رحمه الله – لهذه الدعوة ، وحصل بذلك من الخير العظيم ونشر العلم والحق الهدى ، والقضاء على الشرك ووسائله ، وعلى قمع أنواع الفساد من البدع والضلالات ما يعلمه أهل العلم والإيمان ممن سبر هذه الدعوة ، وشارك فيها ، وناصر أهلها .

فصارت هذه البلاد مضرب المثل في توحيد الله والإخلاص له ، والبعد عن البدع والضلالات ، ووسائل الشرك حتى جرى ما جرى من الفتنة المعلومة التي حصل بسببها العدوان على هذه الدعوة وأهلها ، ثم جمع الله الشمل على يدي الإمام تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود، والد الإمام فيصل بن تركي – رحمة الله على الجميع – ثم على يد ابنه فيصل بن تركي ، ثم على يد ابن ابنه عبد الله بن فيصل بن تركي ، ثم حصلت فجوة بعد موت الإمام عبد الله بن فيصل – رحمه الله – فجاء الله بالملك عبد العزيز ونفع الله به المسلمين ، وجمع الله به الكلمة ، ورفع به مقام الحق ، ونصر به دينه، وأقام به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحصل به من العلم العظيم والنعم الكثيرة ، وإقامة العدل ، ونصر الحق ، ونشر الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ما لا يحصيه إلا الله عز وجل ، ثم سار على ذلك أبناؤه من بعده في إقامة الحق ، ونشر العدل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فالواجب على جميع المسلمين في هذه المملكة التعاون مع هذه الدولة في كل خير ، وهكذا كل من يقوم بالدعوة إلى الله ونشر الإسلام والدعوة إلى الحق يجب التعاون معه في المشارق وفي المغارب ، فكل دولة تدعوا للحق ، وتدعو إلى تحكيم شريعة الله ، وتنصر دين الله ، يجب التعاون معها أينما كانت .

وهذه الدولة السعودية دولة مباركة نصر الله بها الحق ، ونصر بها الدين ، جمع بها الكلمة ، وقضى بها على أسباب الفساد ، وأمن الله بها البلاد ، وحصل بها من النعم العظيمة ما لا يحصيه إلا الله ، وليست معصومة ، وليست كاملة ، كلٌّ فيه نقص ، فالواجب التعاون معها على إكمال النقص ، وعلى إزالة النقص ، وعلى سد الخلل بالتناصح والتواصي بالحق والمكاتبة الصالحة ، والزيارة الصالحة ، لا بنشر الشر والكذب ، ولا بنقل ما يقال من الباطل ؛ بل يجب على من أراد الحق أن يبين الحق ويدعو إليه ، وأن يسعى في إزالة النقص بالطرق السليمة وبالطرق الطيبة، وبالتناصح والتواصي بالحق، هكذا كان طريق المؤمنين ، وهكذا حكم الإسلام ، وهكذا طريق من يريد الخير لهذه الأمة ، أن يبين الخير والحق ، وأن يدعو إليه ، وأن يتعاون مع ولاة الأمور في إزالة النقص ، وإزالة الخلل، هكذا أوصى الله جل وعلا بقوله سبحانه : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾[١] »[٢] .

١٣ - حسن التعامل والتعاون لا يعني السكوت على المنكر :

هذا منطلق آخر ينطلق منه الشيخ في منهجه وتعامله وتعاونه مع ولاة الأمر ، وهو أن هذا الحب المتبادل ، والاحترام المتعارف لم يكن مانعاً في يوم من الأيام من الصدع بكلمة الحق على حسب ما يقتضي الحال ، ويخدم المصلحة ، فقد ينكر أموراً كثيرة جهرة في صحيفة أو إذاعة أو

---

(١) سورة المائدة ، من الآية : ٢ .

(٢) الفتاوى ، جـ ٩ ، ص : ٩٦ - ٩٨ .

محاضرة إذا رأى في ذلك مصلحة ظاهرة ، أو سراً فيما بينه وبينهم ، وما كان من إنكاره ومناصحته في دائرة السرية فهو أضعاف مضاعفة لما كان في العلن لقناعته الأكيدة أن الجهر بكثير من النصح أو الإنكار يكون ضرره أكبر من نفعه .

لقد وقف الشيخ وقفات حازمة ضد كثير من الأمور والاجتهادات والتصرفات والتعليمات التي رأى أنها تخالف الشريعة ، وما نشر من ذلك فلا يمثل إلا جزءاً يسيراً مما لم ينشر على الملأ تمشياً مع سياسة الشيخ التناصحية ، وإن دعاة الشر ، وسدنة الباطل الذين يتصيدون الفرص ، ويحيكون المؤامرات لإيقاع هذه البلاد في كثير من الشرور والمخالفات كانت تتكسر مجاديفهم البائسة أمام صمود الشيخ ووقوفه بالمرصاد وتنبيهه وتذكيره لولاة الأمور ، لقد كان جبلاً شامخاً تحطمت على أعتابه كثير من دعوات الضلال ، وسفن الانحلال .

ولم يكن الشيخ يتردد في إصدار كثير من الفتاوى الجريئة حتى ولو كان ذلك يتعلق بالطبقات الحاكمة في المجتمع الإسلامي ، فانظر مثلاً إلى إنكاره على الإحداد من الملوك والزعماء ، يقول – رحمه الله – : « الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه . . أما بعد :

فقد جرت عادة الكثير من الدول الإسلامية في هذا العصر بالأمر بالإحداد على من يموت من الملوك والزعماء لمدة ثلاثة أيام أو أقل أو أكثر مع تعطيل الدوائر الحكومية وتنكيس الأعلام ، ولا شك أن هذا العمل مخالف للشريعة المحمدية ، وفيه تشبه بأعداء الإسلام ، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ تنهى عن الإحداد وتحذر منه إلا

في حق الزوجة فإنها تحد على زوجها أربعة أشهر وعشراً ، كما جاءت الرخصة عنه ﷺ للمرأة خاصة أن تحد على قريبها ثلاثة أيام فأقل ، أما ما سوى ذلك من الإحداد فهو ممنوع شرعاً ، وليس في الشريعة الكاملة ما يجيزه على ملك أو زعيم أو غيرهما ، وقد مات في حياة النبي ﷺ ابنه إبراهيم وبناته الثلاث وأعيان آخرون فلم يحد عليهم ﷺ ، وقتل في زمانه أمراء جيش مؤتة : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة – رضي الله عنهم – فلم يحد عليهم ، ثم توفي النبي ﷺ وهو أشرف الخلق وأفضل الأنبياء ، وسيد ولد آدم ، والمصيبة بموته أعظم المصائب ولم يحد عليه الصحابة – رضي الله عنهم – ثم مات أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو أفضل الصحابة وأشرف الخلق بعد الأنبياء ، فلم يحدوا عليه ، ثم قتل عمر وعثمان وعلي – رضي الله عنهم – وهم أفضل الخلق بعد الأنبياء وبعد أبي بكر الصديق فلم يحدوا عليهم ، وهكذا مات الصحابة جميعاً فلم يحد عليهم التابعون ، وهكذا مات أئمة الإسلام وأئمة الهدى من علماء التابعين ومن بعدهم ؛ كسعيد بن المسيب ، وعلي بن الحسين زين العابدين ، وابنه محمد بن علي ، وعمر ابن عبد العزيز ، والزهري ، والإمام أبي حنيفة ، وصاحبيه ، والإمام مالك ابن أنس ، والأوزاعي ، والثوري ، والإمام الشافعي ، والإمام أحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة العلم والهدى فلم يحد عليهم المسلمون ، ولو كان خيراً لكان السلف الصالح إليه أسبق ، والخير كله في اتباعهم ، والشر كله في مخالفتهم .

وقد دلت سنة رسول الله ﷺ التي أسلفنا ذكرها على أن ما فعله سلفنا الصالح من ترك الإحداد على غير الأزواج هو الحق والصواب ، وأن

ما يفعله الناس اليوم من الإحداد على الملوك والزعماء أمر مخالف للشريعة المطهرة مع ما يترتب عليه من الأضرار الكثيرة وتعطيل المصالح والتشبه بأعداء الإسلام ، وبذلك يعلم أن الواجب على قادة المسلمين وأعيانهم ترك هذا الإحداد ، والسير على نهج سلفنا الصالح من الصحابة ومن سلك سبيلهم ، والواجب النصيحة ، والتعاون على البر والتقوى ، ولما أوجب الله سبحانه من النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم رأيت تحرير هذه الكلمة الموجزة .

أسأل الله عز وجل أن يوفق قادة المسلمين وعامتهم لكل ما فيه رضاه والتمسك بشريعته والحذر مما خالفها ، وأن يصلح قلوبنا وأعمالنا جميعاً إنه سميع الدعاء ، قريب الإجابة ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وأصحابه »[١] .

ومن الأمثلة على إنكاره للمنكر بكل وضوح وصراحة قوله – رحمه الله – : « ومما تقدم من الأدلة والآثار وكلام أهل العلم يعلم كل من له أدنى بصيرة أن تطهير الإذاعات مما يضر الأمم واجب متحتم لا يسوغ الإخلال به ، سواء كانت الإذاعة شرقية أو غربية إذا كانت تحت ولاية المسلمين ، فكيف إذا كانت الإذاعة في مهبط الوحي ومنبع النور ومحل القبلة التي يوجه المسلمون إليها وجوههم أينما كانوا في اليوم والليلة خمس مرات ، لا شك أنها أولى وأحق بالتطهير والصيانة من كل ما يضر المسلمين في دينهم أو دنياهم ، ولا ريب أن تزويدها بالأغاني وآلات الملاهي مما يضر المسلمين ضرراً ظاهراً في دينهم ودنياهم ، فوجب أن

---

(١) الفتاوى ، جـ ١ ، ص : ٤١١ .

تصان وسائل إعلامنا من ذلك ، وأن تكون وسائل إعلام إسلامية محضة تنشر الحق وتدعو إليه وتحذر من الباطل وتنفر منه ، تزود الناس ما ينفعهم، ويرضي الله عنهم في الدنيا والآخرة ، وتكون نبراساً يهتدي به المسلمون أينما كانوا ، فتارة تزودهم بالعلوم النافعة والتوجيهات السديدة وتلاوة القرآن الكريم وتفسيره بما جاء عن الرسول ﷺ والسلف الصالح ونشر محاسن الإسلام وبيانه لهم سليماً من شوائب الشرك والبدع ، وتارة تسمعهم أحاديث طبية وأحاديث زراعية وتوجيهات تجارية وتعليمات تربوية وإرشادات منزلية إلى غير ذلك من أوجه النفع وطرق الإصلاح الديني والدنيوي .

هكذا يجب أن تكون وسائل إعلامنا ، وهكذا يجب على المسئولين أن يوجهوها ويطهروها مما لا يليق بها ، وإنهم والله مسئولون عن ذلك يوم القيامة أمام العزيز الجبار يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ولقد أحسنت حكومتنا وفقها الله في إيجاد إذاعة خاصة بالقرآن الكريم والتفسير والأحاديث الدينية ، وصارت بذلك قدوة لكثير من الدول الإسلامية ، كما أحسنت في إيجاد البرنامج العظيم الفائدة ، وهو برنامج نور على الدرب لما يشتمل عليه من استقبال أسئلة المسلمين في أنواع العلوم والإجابة عليها من جماعة من خواص أهل العلم والفقه في الدين والسير على منهج السلف الصالح ، فجزى الله حكومتنا عن ذلك أحسن الجزاء وأفضله وأدام توفيقها لكل خير .

وإني أتوجه بهذه الكلمة بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن جميع

العلماء وعن جميع المسلمين الذي يغارون لله ويغضبون إذا انتهكت محارمه ، أتوجه بذلك إلى جميع ولاة أمور المسلمين وأسألهم أن يصونوا وسائل الإعلام عن البرامج الهدامة ويطهروها من كل ما يضر المسلمين ، وأن لا يولوا على شئونها إلا من يخاف الله ويتقيه، وذلك مما أوجب الله عليهم وهم الرعاة للمسلمين ، وكل راع مسئول عن رعيته، فنسأل الله أن يوفقهم لإصلاح هذه الوسائل الإعلامية ، وأن يعينهم على صيانتها من كل ما يضر العباد ، والله المسئول بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يوفق جميع ولاة أمر المسلمين لكل خير ، وأن ينصر بهم الحق ، وأن يصون بهم الشريعة ، ويحمي بهم حماها من جميع البدع والمنكرات ، وأن يصلح لهم البطانة ويمنحهم التوفيق في كل ما يأتون ويذرون ، وأن يوفق جميع المسئولين في حكوماتهم للتمسك بالشرع والتعظيم لحرماته والحذر مما يخالفه إنه على كل شيء قدير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه »[١] .

١٤ - المداراة :

المدارة من المنطلقات التي انطلق منها الشيخ في تعامله وتعاونه مع ولاة الأمور والملوك والزعماء ، والمدارة غير المداهنة ، وهي من الأخلاق المحمودة إذا أحسن استغلالها ، والمداراة صورة من صور التعامل الدالة على الحكمة ، والموصل إلى المقصود من حفظ ما للداعي والمدعو من كرامة ومروءة .

---

(١) الفتاوى ، جـ٣ ، ص : ٤٣١ .

وقد بوب الإمام البخاري – رحمه الله – في صحيحه فقال : المداراة مع الناس ، ثم أورد حديث عائشة – رضي الله عنها – أنه استأذن على النبي ﷺ رجل ، فقال : « ائذنوا له فبئس ابن العشيرة أو بئس أخو العشيرة ، فلما دخل ألان له الكلام ، تقول عائشة : فقلت يا رسول الله: قلت ما قلت ، ثم ألنت له القول ، فقال : « أي عائشة ؛ إن شر الناس منزلة عند الله من تركه أو ودعه الناس اتقاء فحشه »[١] .

قال ابن بطال : المداراة من أخلاق المؤمنين ، وهي خفض الجناح للناس، ولين الكلام وترك الإغلاظ ، وذلك من أقوى أسباب الألفة . قال: وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط لأن المداراة مندوب إليها، والمداهنة محرمة ، والفرق : أن المداهنة من الدهان ، وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه ، وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه .

والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم ، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه ، حيث لا يظهر ما هو فيه ، والإنكار عليه بلطف القول والفعل ، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك . آهـ .

إذا تقرر هذا المعنى فهو الذي قد عناه الحسن البصري – رحمه الله – بقوله : كانوا يقولون : المداراة نصف العقل ، وأنا أقول هي كل العقل .

ومن الطريف قول أبي يوسف – رحمه الله – في تعداد من تجب مداراتهم فعد منهم : القاضي المتأول ، والمريض ، والمرأة ، والعالم ليقتبس من علمه .

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٦١٣١) .

وأكثر ما تجري المداراة في اتقاء الأشرار والمكاره .

وقد جاء في حكم لقمان : يا بني كذب من قال إن الشر بالشر يطفأ، فإن كان صادقاً فليوقد نارين ، ولينظر هل تطفئ إحداهما الأخرى، وإنما يطفئ الخيرُ الشر كما يطفئ الماء النار .

وسلوك المداراة مأذون فيه لأن الإنسان خُلق للاجتماع لا للعزلة ، وللتعارف لا للتناكر ، وللتعاون لا للانفرادية ، والإنسان تعرض له عوارض نفسية وطبيعية من الحب والبغض والرضا والغضب والاستحسان والاستهجان ، فلو سار على أن يكاشف الناس بكل ما يعرض له من هذه الشؤون في كل وقت وعلى أي حال لاختل الاجتماع ولم يثبت التعارف ولانقبضت الأيدي عن التعاون ، فكان من حكمة الله في خلقه أن هيأ الإنسان لأدب يتحامى به عما يُحدث تقاطعاً أو يدعو إلى تخاذل ، وهذه هي المداراة التي نعني .

إذاً فالمداراة ترجع إلى حسن اللقاء ولين الكلام ، وتجنب ما يشعر ببغض أو غضب أو استنكار ، إلا في أحوال يكون الإشعار به خيراً من الكتمان وأرجح وأصلح .

فالمداراة يقصد بها جمع الناس على الرضا والتآلف في حدود ما ينبغي أن يكون ، وهي لا تمنع قضاء بالعدل ولا تحجب نصيحة بالرفق ، وينبغي أن يعلم أن لذكاء الرجل وحكمته مدخلاً عريضاً في فقه المداراة وحسن استخدامها وطريقة الإفادة منها .

قال الماوردي – رحمه الله – : «إن الإنسان وإن كان مأموراً بتألف الأعداء ، ومندوباً إلى مقاربتهم ، فإنه لا ينبغي أن يكون لهم راكناً وبهم

واثقاً ، بل يكون منهم على حذر ، ومن مكرهم على تحرز ، فإن العداوة إذا استحكمت في الطباع صارت طبعاً لا يستحيل ، وجبلة لا تزول .

ومن كل ما تقدم يتبين واجب المصلحين من الدعاة والعلماء والمربين في هذا الباب، فواجب العناية بمحاربة المداهنة حتى تنفى من الأرض وتكون الأوطان ودور التربية منابت نشء يميزون المداهنة من المداراة ، فيخاطبون الناس في دقة وأدب وشجاعة، ويحترمون من لا يلوث أسماعهم بالملق الكاذب ، ولا يكتمهم الحقائق متى اتسع المقام لحديث المصارحة»[1] .

وإن نظرة تأمل في حياة الشيخ – رحمه الله – تجلي لنا بوضوح أنه من أحسن من امتثل خلق المداراة والحكمة ووفق فيه أبلغ توفيق وأجمله ، فكان من ثماره اليانعة ذلك الإجماع على حبه واحترامه وقبول رأيه ونصحه وتوجيهه رحمه الله .

١٥ – نصيحة السر :

ومن منهج الشيخ في تعامله وتعاونه مع ولاة الأمر النصيحة في السر، كما أشرنا إلى ذلك في الفقرة السابقة ، وهو منهج شرعي ونهج نبوي ، فإن ستر المسلم ومناصحته بالسر أولى وأفضل من إشاعة عيوبه ، وإظهار مساوئه ، فكيف إذا كان ذلك المسلم حاكماً أو أميراً ، فإنه بالإضافة إلى التشهير به ينتج عن ذلك من الشر والفتنة والاستهانة بالسلطان أمور لا

---

(١) راجع كتاب مفهوم الحكمة ، لمعالي الشيخ الدكتور صالح بن حميد ص : ٣٦ – ٤٢ .

تحمد عقباها ، وقد روي عنه ﷺ قوله : « من أراد أن ينصح لسلطان بأمرٍ فلا يبد له علانية ، ولكن ليأخذ بيده فيخلو به فإن قبل منه فذاك وإلا كان قد أدى الذي عليه له »[١] .

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد – رضي الله عنهما – أنه قيل له : ألا تدخل على عثمان لتكلمه؟ فقال : « أترون أني لا أكلمه إلا أسمعكم؟ والله لقد كلمته فيما بيني وبينه ما دون أن أفتح أمراً لا أحب أن أكون أول من فتحه »[٢] .

وذكر الحافظ ابن رجب – رحمه الله – في « جامع العلوم والحكم » أن ابن عباس سُئل عن أمر السلطان بالمعروف ، ونهيه عن المنكر فقال : « إن كنت فاعلاً ولابد ؛ ففيما بينك وبينه »[٣] .

يقول ابن النحاس في كتابه : (تنبيه الغافلين من أعمال الجاهلين وتحذير السالكين من أفعال الهالكين) : « ويختار الكلام مع السلطان في الخلوة على الكلام معه على رؤوس الأشهاد ، بل يود لو كلمه سراً ونصحه خفية من غير ثالث لهما »[٤] .

ويقول الشوكاني – رحمه الله – : « ينبغي لمن ظهر له غلط الإمام في بعض المسائل أن يناصحه ، ولا يُظهر الشناعة عليه على رؤوس

---

(١) صححه الألباني في (ظلال الجنة في تخريج السنة ٢ / ٥٢١ – ٥٢٢) .

(٢) الفتح (٦ / ٣٣٠ ، ١٣ / ٤٨) ، صحيح مسلم (٤ / ٢٢٩٠) .

(٣) جامع العلوم والحكم (١ / ٢٢٥) .

(٤) تنبيه الغاملين ، ص : ٦٤ .

الأشهاد ، بل كما ورد في الحديث : أنه يأخذ بيده ويخلو به ويبذل له النصيحة . ولا يُذل سلطان الله .

وقد قدّمنا في أول كتاب السير : أنه لا يجوز الخروج على الأئمة ، وإن بلغوا في الظلم أي مبلغ ما أقاموا الصلاة ، ولم يظهر منهم الكفر البواح ، والأحاديث الواردة في هذا المعنى متواترة .

ولكن على المأموم أن يطيع الإمام في طاعة الله ، ويعصيه في معصية الله . فإنه لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق »[١] .

وهؤلاء هم أئمة الدعوة السلفية الحديثة : الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، والشيخ محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ ، والشيخ سعد بن عتيق ، والشيخ عمر بن سليم ، والشيخ عبد الله العنقري – رحمهم الله جميعاً – يقرون هذا المبدأ الجميل الجليل بقولهم : « وأما ما قد يقع من ولاة الأمور من المعاصي والمخالفات التي لا توجب الكفر والخروج من الإسلام ؛ فالواجب فيها مناصحتهم على الوجه الشرعي برفق ، واتباع ما كان عليه السلف الصالح من عدم التشنيع عليهم في المجالس ومجامع الناس ، واعتقاد أن ذلك من إنكار المنكر الواجب إنكاره على العباد غلط فاحش وجهل ظاهر ، لا يعلم صاحبه ما يترتب عليه من المفاسد العظام في الدين والدنيا ، كما يعرف ذلك من نور الله قلبه ، وعرف طريقة السلف الصالح ، وأئمة الدين »[٢] .

---

(١) السيل الجرار (٤ / ٥٥٦) .

(٢) راجع كتاب معاملة الحكام ، للشيخ عبد السلام بن برجس ص : ٤٥ .

وهذا هو شيخه الشيخ محمد بن إبراهيم – رحمه الله – يقول : «ونصيحة الأمير والمأمور بالسر ، وبنية خالصة تعرف فيها النتيجة النافعة للإسلام والمسلمين ، ولا ينبغي أن تكون عثرة الأمير أو العثرات نصب عينيك والقاضية على فكرك والحاكمة على تصرفاتك ؛ بل في السر قم بواجب النصيحة ، وفي العلانية أظهر وصرّح بما أوجب الله من حق الإمارة والسمع والطاعة لها»[١] .

هذه المواقف الجلية ، كانت نبراساً للشيخ – رحمه الله – في مسيرته التناصحية مع ولاة الأمر ، وانظر إليه يبثها في مسمع الزمان قائلاً : «ليس من منهج السلف التشهير بعيوب الولاة وذكر ذلك على المنابر ؛ لأن ذلك يفضي إلى الانقلابات ، وعدم السمع والطاعة في المعروف ، ويفضي إلى الخروج الذي يضر ولا ينفع ، ولكن الطريقة المتبعة عند السلف النصيحة فيما بينهم وبين السلطان ، والكتابة إليه ، أو الاتصال بالعلماء الذين يتصلون به حتى يوجه إلى الخير .

وإنكار المنكر يكون من دون ذكر الفاعل ؛ فينكر الزنى وينكر الخمر، وينكر الربا من دون ذكر من فعله ، ويكفي إنكار المعاصي والتحذير منها من غير ذكر أن فلاناً يفعلها ؛ لا حاكم ولا غير حاكم .

ولما وقعت الفتنة في عهد عثمان ؛ قال بعض الناس لأسامة بن زيد رضي الله عنه : ألا تنكر على عثمان ؛ قال : أنكر عليه عند الناس؟ لكن أنكر عليه بيني وبينه، ولا أفتح باب شر على الناس .

---

(١) فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ : (١٢/ ١٨٢ -١٨٣) .

ولما فتحوا الشر في زمن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنكروا على عثمان جهرة ؛ تمت الفتنة والقتال والفساد الذي لا يزال الناس في آثاره إلى اليوم ، حتى حصلت الفتنة بين علي ومعاوية ، وقتل عثمان وعلي بأسباب ذلك ، وقتلٍ جمٍّ كثير من الصحابة وغيرهم بأسباب الإنكار العلني وذكر العيوب علناً ، حتى أبغض الناس ولي أمرهم ، وحتى قتلوه ؛ نسأل الله العافية »[١] .

ويقول – رحمه الله – : « ومن الواجب على الرعية مساعدة الدولة في الحق والشكر لها على ما تفعل من خير والثناء عليها بذلك ، كما يجب عليهم معاونة الدولة في إصلاح الأوضاع فيما قد يقع فيه شيء من الخلل بالأسلوب الطيب ، وبالكلام الحسن لا بالتشهير وذكر العيوب في الصحف وعلى المنابر ، ولكن بالنصيحة وبالمكاتبة والتنبيه على ما قد يخفى حتى تزول المشاكلات ، وحتى يحل محلها الخير والإصلاح، وحتى تستقر النعم ويسلم الناس من حدوث النقم ، ولا سبيل إلى هذا إلا بالتناصح والتواصي بالخير ، والواجب على الدولة وفقها الله أن تجتهد فيما يكون قد وقع من خلل في إصلاحه ، وأن تجتهد في كل ما يرضي الله عز وجل ، ويقرب إليه ، وفي إزالة كل ما نهانا عنه الله عز وجل ، وأن تقوم بواجبها في إصلاح ما هو مخالف للشرع ، وأن تجتهد في إزالة ذلك بالتعاون مع العلماء والموظفين والمسئولين الطيبين والصالحين ، ومع هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »[٢] .

---

(١) من فتوى للشيخ مطبوعة في آخر رسالة « حقوق الراعي والرعية » ص ٢٧ – ٢٨ .

(٢) الفتاوى ، جـ ٧ ، ص ١٢٥ .

١٦ - إخلاص القصد لله تعالى :

قال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) .

وقال ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » (٣) .

وقال ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله – عز وجل – فليطلب ثوابه من عندِ غير الله – عز وجل – فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » (٤) .

هذه الأحاديث المرعبة سكنت في ذلك الوجدان الخاشع ، وحلّت في ذلك القلب المؤمن الخائف الوجل ، فأثمرت إخلاصاً وصدقاً ويقيناً وكرهاً للرياء ، ومقتاً للبحث عن السمعة .

لم يكن الشيخ – رحمه الله – فيما نحسبه باحثاً عن سمعة ، أو لاهثاً وراء المديح، أو متطلعاً للثناء ، بل كان في كل ما يعمل وما يذر يقصد وجه الله تعالى ، كما نحسبه والله حسيبه ، وكما علمنا ذلك من

---

(١) سورة البينة : ٥ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٦٢ .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) رواه ابن ماجة والترمذي ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٢) .

واقع المعايشة والمتابعة لم يكن الشيخ ممن يحب التصدر أو الظهور ، لقد بسطت جميع الوسائل المسموعة والمقروءة والمرئية ، أذرعتها لاحتضان الشيخ ، وأشرعت أبوابها لاستقباله ، وارتمى كثير منها عند قدمه ، فلم تظفر منه بشيء من ذلك ، يهرب من الأضواء ، ويكره الضجيج ، ويبتعد عن مواطن الشبه ، مهما أوّلت له التأويلات ، وذكرت له المبررات .

لقد أيقن الشيخ أن النية الصادقة هي أساس قبول العمل ، وفلاحه ، ونجاحه ، وطيب ثمرته ، وحسن عاقبته ، وهكذا ديدن العلماء الصادقين المخلصين على مر الأزمان، يقول يحيى بن أبي كثير : « تعلَّموا النية فإنها أبلغ من العمل » .

وقال داود الطائي : رأيت الخير كله إنما يجمعه حُسْن النيّة .

ويقول سفيان الثوري : ما عالجت شيئاً أشدَّ عليَّ من نيّتي ، لأنها تتقلب عليَّ .

وقال بعضهم : تخليص النية من فسادها أشدُّ على العاملين من طول الاجتهاد .

وقال ابن المبارك : رُبّ عملٍ صغير تُعظِّمه النيّه ، وربّ عمل كبير تصغِّره النية .

يقول أحد السلف : الإخلاص استواءُ أعمالِ العبد في الظاهر والباطن.

ويقول الآخر : المخلص من كتم حسناته كما يكْتُم سيئاته .

وقال الآخر : اللهم إني أستغفرك مما زَعَمْتُ فيه الإخلاص وقد خالط بشاشةَ قلبي غيرُ ذلك .

وقال مكحول : « ما أخلص عبدٌ قطّ أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه » .

وقال يُوسف بن الحسين : « أعزّ شيءٍ في الدنيا الإخلاص ، وكم أجتهدُ في إسقاط الرياء عن قلبي فكأنه ينبتُ على لونٍ آخر » .

وقال الفضيل بن عياض : تركُ العمل لأجل الناس رياءٌ ، والعمل لأجلهم شرْك ، والإخلاص : الخلاص من هذين .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [١] : « هو أخْلَصُهُ وأصوبه ، قالوا يا أبا علي : ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [٢] » [٣] .

إن تعامل الشيخ وتعاونه مع ولاة الأمور كان دافعه الأول طاعة الله جل وعلا وطاعة نبيه ﷺ ، وامتثال أمرهما بصدق نية ، وإخلاص قصد ،

---

(١) سورة الملك ، الآية : ٢ .

(٢) سورة الكهف : الآية : ١١١ .

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١ / ٧٠ - ٧١) .

وليس لرغبة أو رهبة أحد من الناس ، فقد ورد الوعيد الشديد في ذلك ، حيث يقول ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، رجل على فضل ماء بالطريق يمنع منه ابن السبيل ، ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا ، إن أعطاه ما يريد وفَّى له ، وإلا لم يف له .. الحديث »[١] .

١٧ - حسن الظن والبعد عن الغيبة :

قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ** ﴾[٢] .

وقال ﷺ : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسَّسوا ولا تجسّسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا »[٣] .

من أعظم وأجمل ما ترى في هذا الشيخ : حسن الظن بالمسلمين ، فالأصل عنده حسن الظن ، ولا يحب التشكيك في أحد من المسلمين أو تخوينه ، أو الكلام فيه بما لا يرضي حتى ولو بلغه أنه أخطأ عليه شخصياً أو نال منه ، بل ذلك أدعى لجعله لا يهتم للأمر أصلاً ، جاءه

---

(١) متفق عليه ، واللفظ للبخاري (صحيح البخاري مع فتح الباري ١٣ / ٢٠١) .

(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٢ .

(٣) رواه البخاري .

بعض طلبة العلم فشكوا إليه أحد الناس ، وبينوا أخطاءه وبعض المخالفات عنده ، فبدأ الشيخ يملي كتاباً لتوبيخه ونصحه وتوجيهه ، وفي أثناء الكتابة ، قال أحدهم : وإنه يا شيخ يتكلم فيك ، وينال منك فقال الشيخ للكاتب : قف وترك الكتابة خشية أن يقال إن الشيخ ينتقم لنفسه .

كان الشيخ يحسن الظن بولاة الأمور قدر الإمكان ، ويرى أن الأصل فيهم الخير والإسلام ، وأن النصيحة والدعاء هي من أفضل السبل للتعامل معهم .

١٨ - النصح الصادق لكل مسلم :

قال تعالى : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ (٣) .

ولقد كان ديدن الأنبياء جميعاً – عليهم السلام – النصح الصادق

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١١٠ .

(٢) سورة النحل ، الآية ٢٥ .

(٣) سورة فصلت ، الآية ٣٣ .

لله ولكتابه ولرسوله وللمؤمنين ، وكان منطقهم جميعاً ، ولسان حالهم : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ (١) .

وفي الحديث الصحيح عن تميم الداري رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « الدين النصيحة » ، قلنا : لمن؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » (٢) .

والله لقد كانت حياة شيخنا – رحمه الله – صورة صادقة لهذا الحديث الكريم .

ويقول جرير بن عبد الله رضي الله عنه : « بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم » (٣) .

لقد كان الشيخ – رحمه الله – صادقاً مع نفسه ، صادقاً مع أهله ، صادقاً مع طلابه ، صادقاً مع ولاة الأمر وذوي السلطان ، فالشيخ – رحمه الله – لا يقول إلا ما يؤمن به ، ولا ينطق إلا ما يعتقد ، ولذلك فإن ما يمكن أن يدعو به لملك ، أو يثني به على أمير لا ينافقه به في وجهه وينطق به أمامه فقط ، أو يتزلف به في منتدى لأجل حضوره فيه فما قال في العلن يقوله في السر ، وما يعتقده سراً يصدح به جهراً فليس لذرة من محاباة أو مجاملة كاذبة ، أو نفاق طريق إلى قلبه .

وما أروع أساليب الشيخ في تقديم النصيحة ، وما ألطفها ، وما

---

(١) الأعراف : ٦٨ .

(٢) رواه مسلم .

(٣) متفق عليه .

أمضى وقعها في النفوس ، لا تجريح ولا تعنيف ولا تأنيب ، بل هو اللطف والعطف والرفق .

١٩ - الغيث الهنيء :

قال تعالى : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** ﴾ (١) .

يا الله ما أعظم هذه الآية ، وما أبدع معانيها ، وأسمى مراميها ، إنها آية تفيض بالرحمة ، وتنطق باللطف ، وتصدح بالرفق ، وتنبئ عن الشفقة ، إنها مرآة تعكس حقيقة هذا الدين ، وأنه دين الرحمة ولا غرو .

فالله تعالى وصف نفسه بأنه أرحم الراحمين ، وكتب على نفسه الرحمة ، وهو الغفور الرحيم ، ووسعت رحمته كل شيء ، ولما خلق الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : « إن رحمتي تغلب غضبي » ، وفي رواية « سبقت رحمتي غضبي » (٢) .

والكتاب الذي أنزله الله على نبيه وجعله منهاج هذه الأمة هو كتاب رحمة ﴿ **وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (٣) ، ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾ (٤) .

---

(١) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٢) متفق عليه .

(٣) سورة الأعراف : ٥٢ .

(٤) سورة النحل : ٨٩ .

والنبي الذي أرسله رحمة ، ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾[١] ، هو النبي الوحيد الذي جاء وصفه بأنه رحيم ، ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾[٢] ، وقال تعالى : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾[٣] فقد كان ﷺ رحيماً بأمته مشفقاً عليهم ، حتى أثر ذلك على حياته ، وكادت نفسه تذهب حسرات على الذين لم يؤمنوا رحمةً بهم وخوفاً عليهم ، فقال تعالى له : ﴿ **فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ** ﴾[٤] ، وقال تعالى : ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا** ﴾[٥] .

يقول ﷺ : « أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر ، ونبي التوبة ، ونبي الرحمة » .

وكان يبين أن المؤمنين متراحمون فيما بينهم متعاطفون « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

ويقول ﷺ : « لا تنزع الرحمة إلا من شقي » .

ويقول ﷺ : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله عز وجل » .

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧ .
(٢) سورة التوبة : ١٢٨ .
(٣) سورة آل عمران : ١٥٩ .
(٤) سورة فاطر : ٨ .
(٥) سورة الكهف : ٦ .

لقد كانت رحمته ﷺ بالصديق والعدو ، والقريب والبعيد ، والرجال والنساء ، بل والحيوانات والطيور ، وغير ذلك من المخلوقات .

وقد زرع ﷺ خلق الرحمة في قلوب أصحابه فكانوا أرحم الناس وأرقهم وأرفقهم، فالحمد لله الذي منّ علينا بدين الهدى والرحمة .

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي – رحمه الله – : «إن الشريعة كلها مبنيةٌ على الرحمة في أصولها وفروعها ، وفي الأمر بأداء الحقوق سواءٌ كانت لله أو للخلق ، فإن الله لم يكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا تدبرت ما شرعه الله وجدت ذلك كله مبنياً على الرحمة»[١] .

إن هذا العالم الرباني المتأمل لكتاب ربه ، السابر غور سنة نبيه لم يكن خلواً من هذه المعاني السامية ، بل انغمس فيها من رأسه إلى أخمص قدميه ، بل أتى فيها بالعجائب ، وهل كان ابن باز في الناس إلا قلباً رحيماً عطوفاً شفيقاً رفيقاً ؟ يبكي لبكائهم ، ويحزن لأحزانهم ، ويتأثر لأحداثهم ، يرفق بالكبير ، ويعطف على الصغير ، ويتلطف مع الأمير ، لقد كادت نفسه أن تذهب حسرات إن لم تكن ذهبت من جراء اعتنائه بالناس واهتمامه لهم ، يسعى لإصلاحهم وقيادتهم إلى مراتع الرحمة ، ويجتهد ليجنبهم مهاوي الشقاء ، كم أشقى نفسه رحمة بهم؟ وكم أسهر ليله لطفاً بهم؟ وكم أظمأ نهاره شفقة عليهم ؟ لقد كان راحماً لهم فيما يتعلق بأمور دينهم ، فيبذل كل ما في وسعه لقيادتهم إلى الخير ، ولم يدخر في ذلك سبيلاً ، وكان راحماً لهم فيما يتصل بأمور دنياهم ، فاستنفد كل قواه ليفرج همومهم ، وينفس

---

(١) كتاب (الله أهل الثناء والمجد للمؤلف) ، ص ٢٩٣ .

كروبهم، ويقضي ديونهم ، ويعالج مريضهم ، ويعين ضعيفهم ، والمتأمل لما كتب عن الشيخ – رحمه الله – من القصائد فقط يرى كيف كانت جميعاً تنطق بهذه المعاني الرائقة الفائقة .

لقد كان كالغيث الهنيئ لا يحل بأرض إلا اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، إن ابن باز – رحمه الله – لم يكن متحصناً في برج عاجي ، أو متربعاً على كرسي دوار يصدر البيانات ، وينشر الفتاوى ، ويدبج المواعظ ، ويؤلف الكتب ، بل امتزج بالناس ، وسكن في مشاعرهم ، وعاش في أوساطهم ، فأسعدهم بمنشوره ومسطوره ، وأمتعهم بحضوره وشعوره .

ولقد عرف الشيخ أن الأمراء والكبراء هم بأمس الحاجة إلى تدفق هذه الرحمة إلى رحابهم ، وهطول غيث الرفق على مراتعهم ، فأعطاهم من وقته ونصحه ولطفه ورفقه الشيء الكثير ، وعاشهم وسبر حياتهم ، وكان لهم أباً رحيماً ، وموجهاً رفيقاً ، حببهم إلى الدين ، وحبب الدين إليهم ، غَيَّر نظرة كثير منهم ممن كان يظن الدين أو التدين يعني الشدة أو التعنيف أو التفسيق أو التبديع أو التقنيط ، تربع على عرش قلوبهم فصدقوا في حبه ، واجتهدوا في قربه ، ووهبوا أيديهم للتعامل والتعاون معه في كل ما أرادهم له من أمور تنفع الإسلام والمسلمين ، فسخرهم لصالح الدين ، ويسرهم لقضاء حوائج الناس ، فكانوا يتسارعون لتلبية رغبته وقبول شفاعته بصدور منشرحه ، ونفوس راضية .

كان الشيخ يقدم لهم نصائحه الماتعة وتوجيهاته الرائعة في ثوب من اللطف والرحمة والحب والشفقة ، وأذكر أنه كثيراً ما كان يردد تلك

القصة المعروفة التي رويت عن أحد الوعاظ أنه ذهب إلى هارون الرشيد – رحمه الله – فقال له : إني ناصحك ومشدد عليك ، فقال له : هوّن عليك فلست بأفضل من موسى ، ولست أنا بأسوأ من فرعون ، وقال الله تعالى لموسى : ﴿ **فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾ (١) .

لقد كان – رحمه الله – يورد هذه القصة كثيراً ليحث طلبة العلم ودعاة الخير إلى الاقتراب من الأمراء والكبراء وحسن التعامل معهم وإلانة القول لهم ، والدخول إلى قلوبهم .

يقول – رحمه الله – : « وعليك باللين والرحمة والرفق ، لما بعث الله موسى وهارون لفرعون ماذا قال لهما ، قال سبحانه : ﴿ **فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾ ، فأنت كذلك لعل صاحبك يتذكر أو يخشى ، وفي الصحيح عن عائشة – رضي الله عنها – عن النبي ﷺ أنه قال : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به ، اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه » ، وهذا وعد عظيم في الرفق ووعيد عظيم في المشقة ، ويقول – عليه الصلاة والسلام – : « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » ، ويقول ﷺ : « عليكم بالرفق فإنه لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه »(٢) .

وإليك الآن بعض ما قيل عن الشيخ – رحمه الله – من الأمراء والأميرات ، وهل تظن أنهم بذلك يجاملون أحداً أو يتقربون إلى بشر ، يقول خادم الحرمين الشريفين وفقه الله وبارك فيه بعد وفاة الشيخ : « إن

---

(١) سورة طه : ٤٤ .

(٢) الفتاوى ، جـ٦ ، ص : ٤١٧ .

وفاة سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز الذي كرّس حياته للعلم وخدمة الإسلام والمسلمين خسارة فادحة للأمة الإسلامية التي طالما استفادت بعلمه . وقد تحلى بصفات حميدة ، وبذل جهوداً خيّرة وموفقة على صعيد العلم وخدمة الإسلام والدعوة الإسلامية والعلوم الشرعية ، نسأل الله أن يتغمده بواسع رحمته ، ويسكنه فسيح جناته »

ويقول الأمير عبد العزيز بن فهد وفقه الله وبارك فيه : « لم يكن سماحته عالماً مفتياً متحرراً من التقليد والجمود مولعاً بالدليل فحسب ، بل جمع إلى ذلك أنواعاً من الفضل والكرامات .

لقد كان سماحته – يرحمه الله – يأخذ بقلب كل من عرفه عن قرب بتواضعه الجم لذوي الحاجات والضعفاء وكرمه الدائم الذي لا يعرف السآمة والملل ، وكان ذا صفات يندر أن تجتمع لسواه من العلماء وأهل الفضل ، فهو حليم صبور لايغضبه إثقال السائلين عليه ولاينفره إلحاح ملح أو تحامل حاسد ، يقابل الإساءة بالاحسان ، والجفوة باللين ، والمنع بالعطاء .

قالوا : ألا تصف الكريم لنا؟ فقلت على البديْهِ
إن الكريم لكالربيع تحبه للحسن فيْهِ
وإذا تميز حاسدوه بكى ورق لحاسديْهِ

وكان كذلك متوجاً بحلم ورفق وهيبة لاتفارق محياه .. لقد رأيته – رحمه الله – يتفاءل في أوقات عصيبة يظن فيها الناس الظنون . ثقته بالله عظيمة ، يشرح الله صدره للحق فيثبت عليه ولو أكثر عليه المكثرون أو أرجف المرجفون » .

ويقول الأمير مشعل بن محمد بن سعود – وفقه الله وبارك فيه – : «لقد كنت ممن يسعد مراراً وتكراراً بزيارة سماحته ، ولا أسعد لدي من الجلوس إليه وتقبيل جبينه والإصغاء لنصائحه ، كنت أشاوره في كثير من الأمور ، حتى أموري الشخصية والعائلة ، فأجد رأياً نافعاً ، ونصحاً مباركاً منه – رحمه الله – ففي أحد المرات استفتيته – رحمه الله – أن يفتيني بإجهاض جنين لي كنت ووالدته نخاف أن يولد مشوهاً بسبب استعمال دواء خطر على الأجنة لعدم علمنا بالحمل ، فكان رده عليّ – رحمه الله – محاولة إقناعي بعمل مجهود كبير للمحافظة عليه لكي يولد بأحسن حال ، ومما أثلج صدري قوله – رحمه الله – الذي لن أنساه أبداً : «الطفل الذي أنت والده والأمير مساعد بن عبد العزيز جده لوالدته لا يفرّط به» فاعتبرت قوله هذا – رحمه الله – وساماً على صدري لن أنساه أبداً .

لقد كان – رحمه الله – محباً للمسلمين ولأولياء الأمر منهم ، صادقاً معهم ، والله جل جلاله يقول : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ (١) ، فاستحق هذه المرتبة وهذا الاحترام من الجميع» .

وتقول الأميرة منيره بنت محمد البواردي حرم الأمير مشعل بن عبد العزيز وفقها الله وإياه لكل خير ، تقول : «لقد احترم المرأة وأجلها وأعطاها من وقته وجهده الكثير، تعامل معها كأم لهذا المجتمع المسلم كان لايبخل على أي امرأة سواء عرفها أم لم يعرفها سواء كانت من أبناء هذا البلد أو غيره من بلاد المسلمين .

---

(١) سورة التوبة : ١١٩ .

وأذكر أننا حينما سافرنا في إجازة عيد الأضحى المنصرم دار بيننا – وكنا مجموعة من النساء – نقاش حول بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالسفر كالصلاة وما شابهها . ولما عدنا من السفر وجدتها فرصة سانحة لأن أذهب لمنزله العامر بعد عصر اليوم الثاني والعشرين من ذي الحجة قبيل سفره لمدينة الطائف بيوم واحد فحضر الشيخ وبدأ هو بالسؤال فسألني عن سمو الأمير بالاسم ثم عن أبنائي واحداً واحداً ثم سألني عن بناتي ثم سأل عن الوالدة . وترحم على الوالد ودعا له كعادته وفياً محباً لأصحابه وألقيت عليه الأسئلة التي أريد ورغم ذلك أجاب وفصل ورجح كعادته رغم اعتقادي بتكرارها عليه آلاف المرات وجدت منه العالم المتميز بسعة الصدر وحسن الخلق والذكاء والفطنة وكان حقاً مدرسة تعلمنا قبل كل شيء أن العلم خلق وسماحة ويسر ومحبة وأن خلق الأنبياء والصالحين هو نفس الخلق الذي يجب أن يتحلى به العلماء فهم ورثة الأنبياء وأحسست إحساس الغبطة والشكر لله تعالى أن جعلني أنتسب لهذا الدين العظيم بمبادئه وبأحكامه الواضحة ، وصدق خير من قال ، فقد قال تعالى ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [١] وأحسست وفهمت عمق هذه الآية العظيمة خاصة بعد استيفاء أسئلتنا وإجاباته اليسيرة على الفهم ، الواضحة المقصد ، وقد كان ذلك له بما حباه الله سبحانه وتعالى من العلم الغزير والفهم العميق لمقاصد هذا الدين وهذا والله قليل من كثير من شمائله وصفاته رحمة الله عليه . . » .

وتقول الأميرة منيرة بنت سعود الكبير وفقها الله : « حقيقة أجد

---

(١) سورة الحج : ٧٨ .

نفسي عاجزة عن وصف مشاعري ، لقد فقدنا شيخنا الجليل الذي وهب جل وقته وجهده لخدمة المسلمين . وقدر الله لي أن أذهب لمنزله خمس مرات تقريباً للنهل من علمه الغزير ، كنا نذهب له بعد صلاة العشاء فيجلس ويجيب عن أسئلتنا بكل رفق ولطف ، وإذا حدثناه بأي منكر يخص النساء يتأثر وينصح ويوجه . ثم ينصرف من عندنا لوجود موعد آخر لديه ، ووالله لو كان يحصل لنا الالتقاء به يومياً لما تأخرنا وأتمنى أن تبقى سيرته بيننا باستمرار ولا تنقطع البتَّة » .

وتقول الأميرة منال بنت مساعد بن سعود بن عبد العزيز وفقها الله : « وقد لفت نظري في الشيخ غزارة علمه وحسن خلقه إذ اجتمعت فيه هاتان الصفتان الرائعتان كان متواضعاً رحب الصدر مما جعله مقبولاً ومحبوباً لدى الناس ، ومن فرط تواضعه وتقديره للآخرين كان إذا أتاه زائر يبادر هو بالسؤال عن اسمه وحاله ورقم هاتفه مما يشعر هذا الزائر بقدره لدى الشيخ وهذا ما لمسته بنفسي إبان زياراتي له .

كما كان – غفر الله له – يشجع النساء على العلم والدعوة ، وأذكر بهذا المقام أننا ذهبنا لزيارته وكانت برفقتنا أخت عربية مديرة لمركز إسلامي ببريطانيا أتت لزيارة المملكة وعلى الرغم من كثرة مشاغله إلا أنه فرغ نفسه من أجل استقبالها وإن كان يبدو عليه آثار الإرهاق وهذا اتضح لنا من خلال ضغطه على رأسه – إلا أنه جلس واستمع لها وشجعها على الدعوة ودعمها وأكرمها بوليمة خاصة بها ببيته المبارك » .

أرأيت إلى تلك الكلمات وما تحمله من المعاني العظمية وما تفيده من الدروس لكل عالم وطالب علم يريد أن يكون للناس غيثاً هنيئاً سحاً غدقاً ، سقيا رحمة لا سقيا عذاب .

أما عن قبولهم لشفاعاته وتوصياته وملاحظاته – رحمه الله – فهي كم هائل وسيل عارم ، وما رأيته بنفسي على قلة المخالطة فهو شيء عظيم .

لقد كنت أذهب إلى كبار الأمراء مرسلاً من سماحته في أمور تتعلق بها مصالح عامة أو شفاعات خاصة ، فكنت ألقى اهتماماً بيّناً لكل ما يكتبه لهم – رحمه الله – في شتى المجالات ، بل لقد ذهبت إلى بعضهم – وفقهم الله – في أمور كنت أجزم أنها من الصعوبة بمكان فأفاجأ بأن كتاب سماحته قد كتب عليه : « ينجز في الحال » .

ولا أنسى أنني ذهبت مرة إلى الأمير عبد الله بن عبد العزيز – ولي العهد – وفقه الله وبارك فيه ، ذهبت إليه في شفاعة لرجل حلّت به كارثةٌ كبيرة ، ونزلت به نازلة مرهقة وكنت أظن أن الأمر في غاية الصعوبة ، فلما قدمت على الأمير ، كان في غاية الترحيب والاحترام لشفاعة الشيخ، وقد أثمرت تلك الشفاعة ، ونُفِّست كربة ذلك المسلم ، وقد دخلت على سموه أحمل قصيدةً طويلة كان من أبياتها :

قد جئتكم يا طويل العمر مفعمةً ... مشاعري باحترامٍ صادقٍ نضر
أتيتكم من إمامٍ عالمٍ علمٍ ... يدعو لكم دائماً بالفوز والظفر
أقريك منه سلاماً صادقاً ومعي ... رسالة منه فيها موجز الخبر
فيها يؤمَّل فضلٌ من جلالتكم ... وأنت في أرضنا نصرٍ لمنتصر
إن كان غيرك للمظلوم ينصره ... إن جاء يشكو له ظلماً من البشر
فأنت تسعى له من أجل نصرته ... وتنبري لجيوش الضيم والكدر

ولقد كان الشيخ يأخذ معهم ومع غيرهم بقوله تعالى : ﴿**خُذِ الْعَفْوَ**

وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾»[١].

وهذا الشيخ محمد الحمد في كتابه (جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز) الذي هو من رواية الشيخ محمد الموسى (مدير المكتب الخاص لسماحة الشيخ)، يقول تحت عنوان: (منهج سماحة الشيخ في التعامل مع ولاة الأمور):

«يتعامل سماحة الشيخ مع ولاة الأمور على وفق ما جاء في الشرع المطهر، ويمكن أن يلخص ذلك في النقاط التالية:

١ - كان سماحة الشيخ يدين لولاة الأمور بالسمع والطاعة في المنشط والمكره.

٢ - وكان يدين لهم بالنصيحة، ويتعاون معهم على البر والتقوى.

٣ - وكان يبين لهم الحق، ويرغبهم فيه، ويبين لهم الباطل ويحذرهم من طرقه.

٤ - وكان حريصاً على جمع الكلمة، وتحبيب الرعاة بالرعية، والرعية بالرعاة.

٥ - وكان كثير المكاتبة للولاة في شتى المجالات التي يرجى من ورائها جلب النفع أو دفع الضر.

٦ - وكان كثير البذل لشفاعته عند الولاة، في سائر أنواع الشفاعات.

٧ - وكان كثير الدعاء لهم بصلاح النية والبطانة والقول والعمل.

---

(١) كتاب (إمام العصر) للمؤلف، ص: ٦٤٨.

٨ – ولم يكن يتشوف إلى ما عند الولاة ، أو يطمع بما لديهم من الجاه أو المال أو المنصب .

٩ – وكان يقول : ربما نختلف مع ولاة الأمور في بعض الأمور ، وربما يشتد النقاش ، ولكننا نصطلح معهم ، ويزول ما في النفوس ؛ لأن الهدف هو النصح لهم وللمسلمين .

١٠ – وكان يقول : الواجب علينا بيان ما نراه لهم ، والاستمرار في بذل النصح دون توقف حتى الموت ، وموقفنا في ذلك لا يتغير ؛ فهذا الذي في وسعنا واستطاعتنا .

١١ – كان يتأدب معهم ، وينزلهم منازلهم ، ويحسن مخاطبتهم ومكاتبتهم .

١٢ – كان كثير الشكر للولاة إذا صدر منهم قرار صائب ، أو مبادرة طيبة، أو نحو ذلك .

والأمثلة في هذا القبيل لا تكاد تحصى من لدن الملك عبد العزيز – رحمه الله – إلىٰ عهد خادم الحرمين الشريفين – حفظه الله – .

وإليك هذا المثال ، وهو كتاب بعثه سماحة الشيخ إلى الملك سعود – رحمه الله – يشكره على مكرمة مالية أجراها – لما كان ولياً للعهد – لطلاب سماحة الشيخ ، وإليك نص ذلك الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الله بن باز إلى حضرة محترم المقام ولي العهد المكرم سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل ، رفع الله به كعب الإسلام ، ونشر به العلم النافع بين الأنام . . آمين .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كتابكم الكريم المؤرخ ٣ / ٩ / ١٣٧٠ هـ وصل ، وصلكم الله بحبل الرضا والتوفيق .

وما تضمنه من الإفادة عن تفضلكم بأمر المالية أن تجري للطلبة بطرفنا قاعدة سنوية كالذي تفضل به الوالد – حفظه الله وإياكم – كان معلوماً، ولقد سررت بذلك كثيراً ، ودعوت لسموكم الكريم بما أرجو من المولى سبحانه أن يجيبه ، ولا يحجبه بالذنوب .

وإنها لخطوة مباركة من سموكم الكريم في تأييد العلم ، ومساعدة طالبيه في هذا الزمان الذي قلَّ فيه طلاب العلم النافع ، وقلَّ فيه من يدعو إليه ، ويساعد طلابه .

وهي – في الحقيقة – نزر يسير من بحور جودكم وإحسانكم ، لازلتم موفقين للمساهمة في كل خير ، والمساعدة على كل حق ، ولم يزل سموكم الكريم – بحمد الله – معروفاً بتشجيع العلم ، ومساعدة طلابه ، والعطف عليهم بما ينشطهم ويرغبهم في تكميل دراسته .

وإني لأرجو لسموكم الكريم من التشجيع والمساعدة لطلاب العلم النافع في جميع أنحاء المملكة ما هو أكبر من الواقع وأظهر وأشمل ؛

لمسيس الحاجة إلى ذلك ، وانصراف رغبة الأكثر في كل الأقطار عن طلب العلم النافع الشرعي إلى طلب غيره ؛ لما يترتب على الأخير من المساعدات الكثيرة المادية .

وأكثر النفوس إنما تسعى وراء المادة أين وجدت ، وكيف وجدت ، وهذا كله يوجب مضاعفة الجهود في تشجيع العلم النافع الشرعي ، ومساعدة طلابه ، والقائمين بتعليمه بشتى الوسائل في كل الأقطار الإسلامية ؛ لأنه لا قوام للإسلام وأهله في أمر الدين والدنيا ، ولا سلامة من غوائل الأعداء وكيدهم إلا بالعلم النافع ، وما يترتب عليه من العمل الصالح ، والثقة بالله ، والحذر من مكائد الأعداء ، وبذل الوسع في إعداد كل ما يستطاع من القوة الحسية والمعنوية لصد عدوانهم ، وإيقافهم عند حدهم ، واستيفاء ما عليهم للمسلمين من الحقوق التي لا يستطاع استحصالها منهم إلا بالعلم والقوة .

والله المسؤول أن يجعل سموكم وجلالة والدكم أعظم ناصر للحق ، ومؤيد للعلم في هذا الزمان المظلم ، وأن يحفظكم بالإسلام ، وينصر بكم حزبه ، ويخذل بكم أعداءه ، وأن يعينكم على القيام بأعباء ما حملتم ، وأداء ما وجب عليكم أكمل قيام وأتمه ، وأن يمدكم بمعونته وتسديده ، وأن يصرف عنكم كيد كل كائد ، وأن يصلح لكم الأقوال والأعمال ، ويجعل خير حياتكم آخرها ، وأفضل عملكم خاتمته ، وخير أيامكم يوم لقاه ، إنه سميع الدعاء ، قريب الإجابة ، والله يتولاكم ، والسلام .

١٣٧٠/٩/١٢ هـ

١٣ – كان يقوم بكل عمل يسنده إليه ولاة الأمور على أتم وجه وأكمله .

١٤ – كان كثيراً ما يزور الولاة لنصحهم أو زيارتهم في حال المرض أو الوصول أو نحو ذلك .

١٥ – وكان كثير المبادرة في تهنئة الولاة بسلامة الوصول ، أو بالشفاء من المرض ، أو بمناسبة حلول شهر رمضان ، أو انقضائه ، أو حلول العيد أو نحو ذلك ، فكان يهاتفهم أو يكاتبهم أو يزورهم .

والأمثلة في هذا السياق كثيرة جداً ، وإليك هذا المثال ، وهو عبارة عن برقية كتبها سماحته لخادم الحرمين الشريفين يهنئه بإكمال شهر رمضان ، وحلول عيد الفطر ، وذلك في ٢ / ١٠ / ١٤٠٨ هـ وإليك نص البرقية :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة خادم الحرمين الشريفين الملك الكريم فهد بن عبد العزيز حفظه الله من كل سوء ، ونصر به الحق . . آمين .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فبمناسبة إكمال شهر الصيام والقيام ، وحلول عيد الفطر المبارك ، يسرني أن أرفع إلى مقامكم الكريم أصدق التهاني ، وأكمل التبريكات بهذه المناسبة المباركة .

تقبل الله منكم ، وأعاده عليكم ، وعلى جميع المسلمين أعواماً كثيرة في خير وعافية ، وصحة واستقامة ، وضاعف لكم المثوبة ، وجعلنا وإياكم وسائر إخواننا من العتقاء فيه من النار .

كما أسأله – سبحانه – أن يجمع شمل المسلمين ، ويصلح قلوبهم

وأعمالهم ، ويوفق ولاة أمرهم لما فيه صلاح أمر دينهم ودنياهم ، إنه جواد كريم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

الرئيس العام

لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد»[١] .

١٨ - الورع والنزاهة :

هذا منطلق من منطلقات الشيخ في التعاون والتعامل مع ولاة الأمر ، وهو معجزة من المعجزات في حياة الشيخ ، إن الدنيا بنضارتها وزهرتها وإغرائها لتفتن الناس ، وتجذب القلوب ، وتستهوي الأفئدة ، ولقد كثرت الآيات القرآنية التي تحذر من الانخداع بالدنيا والغرور بزينتها ، والفرح بحطامها ، وما ذلك إلا لأنها خطر أكيد ، وشر عنيد ، وكذلك وردت الأحاديث النصيحة عن النبي ﷺ في التحذير من الدنيا وإبداء معايبها ، وذكر مصائبها ، والتحذير من الغرور بها ، وأنها حلوة خضرة ، جميلة نضرة ، ومع ذلك فقد كان الناجون من فتكها ، والمفلتون من قبضتها قليلاً ما هم .

---

(١) جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز للشيخ محمد الحمد ، ص : ٢٦٦ - ٢٧٠ .

إن ابن باز – رحمه الله – لم يغب عنه قوله تعالى : ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ (١) .

ولم يغب عنه قوله ﷺ : «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء» (٢) .

ولم يغب عنه قوله ﷺ : «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالماً ومتعلماً» (٣) .

ولم يغب عنه قوله ﷺ : «إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء» (٤) .

ولم يغب عنه قوله ﷺ : «والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم» (٥) .

ولم يغب عنه قول علي رضي الله عنه : «مثل الدنيا مثل الحية ليّنٌ مَسّها ، قاتل سمها ، فأعرض عما أعجبك منها لقلة ما يصحبك منها ، وضع

---

(١) سورة الحديد ، الآية ٢٠ .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه .

(٣) رواه الترمذي وابن ماجه .

(٤) رواه البخاري

(٥) رواه البخاري .

عنك همومها ، لما أيقنت من فراقها ، وكن أحذر ما تكون لها وأنت آنسُ ما تكون بها ، فإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور ، أبعده عنها مكروه ، وإن سكن منها إلى إيناس ، أزاله عنها إيحاش » .

فهي لا تصفو لشارب ، ولا تبقى لصاحب ، ولا تخلو من فتنة ، ولا تُخْلِي من محنة ، نعيمها يتنقل ، وأحوالها تتبدل ، ولذاتها تفنى ، وتبعاتها تبقى .

لقد عرف – رحمه الله – هذه الحقيقة وسكنت تلكم النصوص في وجدانه ، وامتزجت بدمه ، ونقشت في وجدانه ، وكون المرء يزهد في الدنيا وهي غير مقبلة عليه فذلك أمر سهل يسير ، ولكن النجاح الباهر ، والتألق الظاهر أن تقبل الدنيا على المرء وترتمي بين يديه ، وتداعب فؤاده، وتغري نفسه ، وتتزين للقائه ، وتتودد لاصطفائه فيعرض عنها ، ويشيح بوجهه ، ويقفل منافذ حبها من قلبه ، ويهزم كبرياءها ، ويتنكر لبهائها .

إن الورع من أهم السمات التي ارتسمت في فؤاد الشيخ – رحمه الله – وظهرت ثمارها على كل أعماله وأقواله ، « يقول ﷺ : « البر ما سكنت إليه النفس واطمأنَّ إليه القلب ، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المفتون »[١] ، وهذه الإجابة وذلك التوجيه للإنسان المؤمن ، أما الفاسق والفاجر فإن الإثم لا يحوك في صدره، بل ربما يتلذذ بالمعاصي ، ويستمتع بالآثام ، وهي متع ظاهرة ، وتلذذ مغشوش، ولكن المسلم يجد لصدره انفساحاً ، ولفؤاده انشراحاً

---

(١) صحيح الجامع : ٢٨٨١ .

مع البر ودروبه ، ويجد في صدره ضيقاً ، وفي قلبه حرجاً حين التلبس بالإثم ودواعيه .

ويقول ﷺ : « إنك لن تدع شيئاً اتقاءً لله عز وجل إلا أعطاك الله خيراً منه »[١] .

ويقول ﷺ : « أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة في طُعمة »[٢] .

يقول الحسن البصري – رحمه الله – : مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة – أي النفل – .

وقال محمد بن واسع – رحمه الله – : يكفي من الدعاء مع الورع اليسيرُ منه .

وقال حبيب بن أبي ثابت – رحمه الله – : لا يعجبكم كثرةُ صلاة امرئ ولا صيامه ، ولكن انظروا إلى ورعه ، فإن كان ورعاً مع ما رزقه الله من العبادة فهو عبد لله حقاً »[٣] .

إن من أعظم ما رفع الشيخ في نظر الأمراء والكبراء أنه مع قربه منهم وحبه لهم ، واختلاطه بهم ، ومؤاكلته ومشاربته لهم لم تستطع الدنيا أن تتسرب إلى فؤاده ، فجاد على الناس بترك ما في أيديهم ،وتفضل عليهم بعدم الطمع فيهم ، وهل أهلك كثيراً من العلماء إلا الدنيا؟ وهل أزرى

---

(١) مسند أحمد (٥ / ٧٨) .

(٢) انظر صحيح الجامع ، ص : ٨٧٣ .

(٣) جامع العلوم والحكم ، لابن رجب ، ص : ٢٧٦ – ٢٨٠ .

بعدد من طلبة العلم إلا الدنيا؟ وهل خفتت أصوات كثيرة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر إلا لأجل الدنيا؟ وهل أخرست دعوات للحق ، وتنديدات بالباطل إلا بالخوف على مصير الدنيا؟ رحم الله الشيخ رحمة واسعة!! .

أتيته في يوم من الأيام فأخذت أتوسل إليه ، وأترجاه وأحاول معه أن يوافق لي على السعي في شراء هذا المنزل الذي يسكنه بمكة فهو ليس له بل هو مستأجر ، فحاولت إقناعه وقلت له لا أريد منك إلا الموافقة والباقي عليّ ، وكنت أود أن أسعى لدى ولاة الأمر وفقهم الله لشراء المنزل للشيخ ، فقال لي : اصرف النظر عن هذا الأمر ، أي شيء تحتاجه مني في مساعدة أو شفاعة للمسلمين فلا تتردد ، أما لي أنا فلا .

ولم تكن هذه حادثة فريدة ، أو قصة وحيدة لسماحته فإن سجل حياته قد ضمخ بعبقٍ من هذه المواقف الماجدة ، انظر إلى قصة حصوله على جائزة الملك فيصل – رحمه الله – تلك الجائزة التي لها مكانتها الدولية وثقلها العالمي ، لم يكن في باله وهو يتسلمها أن يفرح بهذا المبلغ المغري الذي جاءه من غير تطلعٍ أو استشراف نفس ، لم يفرح به ليطور به بعض الضروريات الحياتية لأهله وأبنائه ومنزله أو يشتري به أرضاً أو يقيم به سكناً ، بل انطلق لاستلامه وهو يحمل هموم الأمة الإسلامية في كل مكان ، ومن ضمن ذلك دار الحديث الخيرية بمكة المكرمة التي وقفت على خدمة السنة ، ودراسة الهدي النبوي ، وتحوي بين جنباتها عدداً هائلاً من أبناء العالم الإسلامي ، الذين ينهلون من علمها ، ويستنيرون بنورها ، ولكن أوضاعها المادية مترديه ، وميزانيتها ضئيلة ، إنها بحاجة إلى يدٍ خيّرة تشد من أزرها ،

وتدفع عجلتها ، ومَنْ إذاً إن لم يكن عبد العزيز بن باز – رحمه الله – .

ومن هذه القصص الخلابة قصة سماحته المعروفة والمشهورة في المدينة المنورة ، حينما كان رئيساً للجامعة الإسلامية فزاره الملك فيصل – رحمه الله – وأمر ببناء قصرٍ لسماحته يتوافق مع مكانته العلمية والدينية والاجتماعية ، وبعد أن تم بناء القصر ، جاؤوا إلى سماحة الشيخ ليسجلوا صك القصر باسمه ، فرفض ذلك ، وقال يبقى القصر باسم رئيس الجامعة الإسلامية ، كلّ من تولى رئاسة الجامعة فالقصر سكن له .

ودنيا ازَّخْرفت فازورَّ عنها ... تطارده ويمعن في البعاد
وزهد الواجدين أجلُّ قدراً ... من الزهد المغلف بافتقاد
أمام المال تُمتحن النوايا ... ويمتاز البخيل من الجواد
فبذل في سبيل الله يُعطي ... وقد يعطى بحمدٍ مستفاد
جلال المحبتين عليه يبدو ... وسيما الصالحين من العباد
عفيف زاهد طلق المحيا ... نقيُّ القلب موثوق السداد
عليه سحائب الرحمات تترى ... تجيء بها السواري والغوادي

لقد أيقن ابن باز بقوله جل وعلا : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ** ﴾[١] .

ولقد كان – رحمه الله يمتثل وصية النبي ﷺ للرجل الذي قال له : يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله ، وأحبني الناس ،

---

(١) سورة القصص ، الآية ٦١ .

فقال ﷺ : «ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»[١] .

قال الشاعر :

هي الدار دار الأذى والقذى ... ودار الفناء ودار الغِيَرْ
فلو نلتها بحذافيرها ... لمُتّ ولم تقضِ منها الوطرْ

وقد قيل قديماً : خمس من الأخلاق هي من علامات علماء الآخرة ، مفهومات من خمس آيات من كتاب الله عز وجل ، وهي : الخشية ، والخشوع ، والتواضع ، وحسن الخلق ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، وهو الزهد .

أما الخشية فمن قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾[٢] .

وأما الخشوع فمن قوله تعالى : ﴿ **خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً** ﴾[٣] .

وأما التواضع فمن قوله تعالى : ﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[٤] .

وأما حسن الخلق فمن قوله تعالى : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ** ﴾[٥]

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠٢) .
(٢) سورة فاطر ، الآية : ٢٨ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ٩٩ .
(٤) سورة الحجر ، الآية : ٨٨ .
(٥) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٩ .

وأما الزهد فمن قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ (١) .

٢١ - صفحات خفية :

من منطلقات الشيخ في تعامله وتعاونه مع ولاة الأمور ذلك المنطلق الفريد والنهج الوحيد الذي لا نكاد نعلم فيه للشيخ سابقاً ، والميدان الذي لم نكد نرى له فيه لاحقاً ، إنها العالمية الرائدة ، والرحمة المتدفقة ، التي أبت إلا أن ترسل شآبيبها إلى أنحاء الدنيا وأقطار المعمورة ، إن هذا الجانب المنير من حياة الشيخ والصفحات الخفية لهي بحد ذاتها منهج أتم، ونبراس أشم ، ومنطلقات أهم ، إنها إضاءات مشرقة ، لو كشفت للناس لرأوا منها العجب العجاب ، إنها رسائل الشيخ لملوك وأمراء ورؤساء وزعماء الدول الإسلامية والعربية ، إن ما نعرف عن الشيخ من جوانب العظمة وآيات الكمال في كفه ، وتلك الرسائل في كفة ، وياليت الدعاة وطلبة العلم يقفون عليها ، أو يرون ما فيها ، فلو حدث ذلك لتغيرت مسيرات دعوية كثيرة ، ولاستقامت نظريات عديدة ، ولنضجت أفكار ، وصلحت أنظار، وطابت أخبار ، لأناس كثير ، ولتلك الرسائل أبعاد مفيدة ، وآماد مجيدة ، ومنها :

أولاً - بعد النظر :

تبدي بعد نظر الشيخ وفهمه الشرعي الواسع وإيمانه بما فرض على

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٨٠ .

المسلمين من واقع ضيع خلافتهم ، وشتت إماراتهم ، وعدد أممهم ، وهو يرى أسوة بغيره من علماء السلف أن كل من تغلب على فئةٍ أو جماعة أو بلد حتى تستتب له الأمور فهو ولي أمر تجب طاعته في المعروف .

يقول الإمام الشوكاني – رحمه الله – : « وأما بعد انتشار الإسلام ، واتساع رقعته، وتباعد أطرافه ؛ فمعلوم أنه قد صار في كل قطر أو أقطار الولاية إلى إمام أو سلطان ، وفي القطر الآخر كذلك ، ولا ينعقد لبعضهم أمر ولا نهي في قطر الآخر وأقطاره التي رجعت إلى ولايته .

فلا بأس بتعدد الأئمة والسلاطين ، ويجب الطاعة لكل واحد منهم بعد البيعة له على أهل القطر الذي ينفذ فيه أوامره ونواهيه ، وكذلك صاحب القطر الآخر .

فإذا قام من ينازعه في القطر الذي قد ثبتت فيه ولايته ، وبايعه أهله؛ كان الحكم فيه أن يقتل إذا لم يتب .

ولا تجب على أهل القطر الآخر طاعته ، ولا الدخول تحت ولايته ؛ لتباعد الأقطار ؛ فإنه قد لا يبلغ إلى ما تباعد منها خبر إمامها أو سلطانها، ولا يدري من قام منهم أو مات ؛ فالتكليف بالطاعة والحال هذا تكليف بما لا يطاق ، وهذا معلوم لكل من له اطلاع على أحوال العباد والبلاد .

فاعرف هذا ؛ فإنه المناسب للقواعد الشرعية ، والمطابق لما تدل عليه الأدلة ، ودع عنك ما يقال في مخالفته ؛ فإن الفرق بين ما كانت عليه الولاية الإسلامية في أول الإسلام وما هي عليه الآن أوضح من الشمس .

ومن أنكر هذا ؛ فهو مباهت لا يستحق أن يخاطب بالحجة ؛ لأنه لا يعقلها »[١] .

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية من قبله يقول : « والسنة أن يكون للمسلمين إمام واحد ، والباقون نوابه ؛ فإذا فرض أن الأمة خرجت عن ذلك لمعصية من بعضها ، وعجز من الباقين ، أو غير ذلك ؛ فكان لها عدة أئمة ؛ لكان يجب على كل إمام أن يقيم الحدود ، ويستوفي الحقوق »[٢] .

ورأي الشيخ في السمع والطاعة لم يكن لولاة الأمر في هذه البلاد فقط ، بل كان يأمر كل أهل بلاد بالسمع والطاعة لولاتهم في المعروف ، حتى ولو كانوا ظالمين طالما أنهم لا قدرة لهم على تغيير ، أو أن ذلك سيترتب عليه فساد في البلاد وخلل للأمن ، وترويع للناس ، ولم يعرف عن الشيخ – رحمه الله – كلمة واحد يؤلب فيها قوماً على رئيسهم ، أو يحرض شعوباً على ولاتهم مهما كان فسادهم وظلمهم لعلمه بالواقع، وبصيرته بالأمور .

ثانياً - النظرة العالمية :

أنها تظهر النظرة العالمية عند الشيخ فهو عالم أمة وليس عالم شعب أو دولة أو فئة، إنه الدين .. دين عالمي ، والنبي ﷺ نبي العالمين ، والعلماء يجب أن يكونوا رحمة للعالمين كذلك : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً**

---

(١) « السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار » : (٤ / ٥١٢) .

(٢) « مجموع الفتاوى » : (٣٥ / ١٧٥ – ١٧٦) .

لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[١] .

بل إن الشيخ يذهب إلى أبعد من ذلك في أغلب مواعظه وكلماته ، حيث يخاطب الجن والإنس اقتداءً بالنبي ﷺ ، وكان كثيراً ما يردد : « إن على جميع الثقلين من الجن والإنس أن يتقوا الله » .

لقد كان الشيخ عالمي الدعوة ، عالمي الفكر ، عالمي الفتوى ، عالمي الاهتمام ، عالمي العطاء ، عالمي الدعاء ، لا يدخر وسعاً ، ولا يتخلف عن واجب ، ولا يتأخر عن نصرة مسلم ، وأينما ذكر اسم الله في بلدٍ فهو بلده ، وهو موضوع اهتمامه ، ولذلك كان يرسل لجميع الرؤوساء في أمور عدة ، ونواحٍ مختلفة .

لقد رأيت لدى الشيخ رسائل إلى جميع الزعماء والأمراء المسلمين بدون استثناء ، وكانت متنوعة متعددة ، إما أن تكون في مناصحة في منكر من المنكرات ، وإما أن تكون في تشجيع على عمل إيجابي لذلك الرئيس من تطبيق للشريعة ، أو منع للخمور، أو منع للاختلاط . . وما إلى ذلك . وكانت مصدرة بأجمل عبارات التبجيل ، وأحسن كلمات الاحترام ، وألطف ألفاظ الدعوة ، وغالباً ما يفتتح الكلمة بقوله : « يا محب » . وإنه لا يزال لدي أمل في محاولة الحصول على موافقة في إظهار هذه الرسائل أو بعضها مما لا حرج فيه على من وجهت له ، وآمل أن أوفق في ذلك إن شاء الله تعالى .

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٨ .

ثالثاً - الإحساس بالمسئولية :

أنها تظهر إحساس الشيخ بالمسئولية ، وأن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد من امتثاله والمناصحة فيه ، ولكن بالطريقة الأمثل والأسلوب الأجدى ، أما أن يكون العالم شيطاناً أخرس يرى المنكرات وبيده أن ينصح فلا يفعل شيئاً ، ويرى المخالفات ويقدر أن يوجه فلا يحرك ساكناً ، فتلك ليست من سمات العلماء الربانيين ، فكيف بمن يحرصون على استرضاء السلاطين بعدم أمرهم بمعروف أو نهيهم عن منكر لكي يظفروا بحبهم وقربهم وعطاياهم على حسب ظنهم، وكأنهم غفلوا عن قوله ﷺ : « من ابتغى رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس » .

رابعاً - روح التشجيع :

أنها تظهر روح التشجيع والتأييد ، فإن أي زعيم مسلم إذا قام بعمل إيجابي ورأى من يشجعه عليه ويشكره له ، فإن ذلك يقوي من عزيمته ، ويدفع عجلته، فكيف إذا كان التأييد والشكر والثناء من الشيخ ابن باز عالم الدنيا ، ومفتي بلاد الحرمين ، لا شك أن له أكبر الأثر في نفس ذلك الأمير أو الزعيم ، وكذلك الشأن لو كانت الرسالة في مناصحة عن منكر من المنكرات .

خامساً - حقيقة التآخي :

أنها تظهر حقيقة التآخي ، وروعة التعامل ، وجميل التلاحم بين المسلمين ، كما قال ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً وشبك بين أصابعه » .

وقوله ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» .

وإذا أردت أن ترى هذا الأمر في أروع مناظره ، وأبهى حلله ، فانظر إليه في هذه الرسالة التي كتبها الشيخ في إحدى المجلات باعثاً بها إلى جميع الدول الإسلامية حكومات وشعوباً ، ومما قال فيها : « والنصوص الواردة في هذا الباب من الآيات والأحاديث كثيرة جداً ، وهي وإن لم ترد بلفظ التضامن فقد وردت بمعناه ، وما يدل عليه عند أهل العلم ، والأشياء بحقائقها ومعانيها لا بألفاظها المجردة ، فالتضامن معناه : التعاون والتكاتف ، والتكافل والتناصر والتواصي ، وما أدى هذا المعنى من الألفاظ ، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الله سبحانه ، وإرشاد الناس إلى أسباب السعادة والنجاة ، وما فيه إصلاح أمر الدنيا والآخرة ، ويدخل في ذلك تعليم الجاهل ، وإغاثة الملهوف ، ونصر المظلوم ، ورد الظالم عن ظلمه ، وإقامة الحدود ، وحفظ الأمن ، والأخذ على أيدي المفسدين المخربين ، وحماية الطرق بين المسلمين داخلاً وخارجاً ، وتوفير المواصلات البرية والبحرية والجوية ، والاتصالات السلكية واللاسلكية بينهم ، لتحقيق المصالح المشتركة الدينية والدنيوية ، وتسهيل التعاون بين المسلمين في كل ما يحفظ الحق ، ويقيم العدل ، وينشر الأمن والسلام في كل مكان .

ويدخل في التضامن أيضاً الإصلاح بين المسلمين ، وحل النزاع المسلح بينهم ، وقتال الطائفة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ** ﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿ **وَإِن**

﴿ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١).

ففي هذه الآيات الكريمات ، أمر الله المسلمين جميعاً بتقواه سبحانه، والقيام بالإصلاح بينهم عموماً ، وبالإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين منهم خصوصاً ، وقتال الطائفة الباغية ، حتى ترجع عن بغيها ، وأن يكون الصلح على أسس سليمة قائمة على العدل والإنصاف ، لا على الميل والجور ، وفيها التصريح بأن المؤمنين جميعاً إخوة، وإن اختلفت ألوانهم ولغاتهم ، وتناءت ديارهم ، فالإسلام يجمعهم ويوحد بينهم ، ويوجب عليهم العدل فيما بينهم ، والتظافر والكف عن عدوان بعضهم على بعض ، ويوجب على إخوانهم الإصلاح بينهم إذا تنازعوا ، وتدل أيضاً على أن هذا النزاع والقتال بين المؤمنين لا يخرجهم من الإيمان ، وهو قول أهل السنة والجماعة ، خلافاً للخوارج والمعتزلة ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ وإن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ ، فسماهم مؤمنين مع الاقتتال ، وهكذا جميع المعاصي لا تخرج المؤمن من دائرة الإيمان ما لم يستحلها ، ولكنها تنقص الإيمان وتضعه .

ثم ختم سبحانه هذه الآيات بالأمر بالتقوى ، وعلق الرحمة على ذلك فقال : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ، فدل ذلك على أن تقوى الله في كل الأمور ، هي سبب الرحمة والعصمة والنجاة ، وصلاح الأحوال

---

(١) سورة الحجرات : ٩ .

الظاهرة والباطنة .

ويدخل في التضامن أيضاً تبادل التمثيل السياسي ، أو ما يقوم مقامه بين الحكومات الإسلامية ، لقصد التعاون على الخير ، وحل المشكلات التي قد تعرض بينهم بالطرق الشرعية ، واختيار الرجال الأكفاء في عملهم ودينهم وأمانتهم لهذه المهمة العظيمة .

ويدخل في التضامن أيضاً توجيه وسائل الإعلام إلى ما فيه مصلحة الجميع وسعادتهم ، في أمر الدين والدنيا ، وتطهيرها مما يضار ذلك .

فالواجب على المسلمين جميعاً أينما كانوا هو الاعتصام بدين الله ، والتمسك به، والتضامن فيما بينهم ، والتعاون على البر والتقوى ، ومناصحة من ولاه الله أمرهم ، والحذر من أسباب الشقاق والخلاف ، والرجوع في حل المشكلات إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ ، والتواصي في ذلك بالحق والصبر عليه ، مع الحذر من طاعة النفس والشيطان وبذلك يفلحون وينجحون ، ويسلمون من كيد أعدائهم ، ويكتب الله لهم العز والنصر ، والتمكين في الأرض ، والعاقبة الحميدة ، ويؤلف بين قلوبهم ، وينزع منها الغل والشحناء ، وينجيهم من عذابه يوم القيامة ، وفي هذا المعنى يقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح : «إن الله يرضى لكم ثلاثاً : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»[١] .

---

(١) الفتاوى ، جـ٢ ، ص : ١٩٢ .

سادساً - النظرة الشرعية :

أنها تجلي النظرة الشرعية الصادقة في دعوة السلاطين والولاة بالأسلوب الحسن ، والطريق الأمثل ، في بعد عن التشهير أو التجريح أو التعنيف فإن تلك المئات من رسائل الشيخ كلها في غاية السرية لم يظهر منها للناس إلا ما ليس في إظهاره حرج على من أرسلت إليه ، وكان الظرف بحاجة إلى إظهارها من باب التشجيع والتثبت والتأييد لمن أرسلت إليه خصوصاً إذا كانت في مسائل إيجابية ، وهذه نظرية الشيخ في تناصحه وتعاونه أنه يتعامل بما يقتضيه الحال ويستدعيه المقام ، يقول - رحمه الله - : « التعاون يكون بالسر ويكون بالجهر ، والأصل أنه بالجهر ، حتى يعلم السامع ما يقال ويستفيد ، فالتعاون والإرشاد نصيحة جهرية للمجتمع هذا هو الأصل ، إلا إذا اقتضت المصلحة الشرعية عدم الجهر خوفاً من الشر من بعض الناس ؛ لأنه لو نصح أو وجه جهراً قد لا يقبل وقد يتكبر ، فالنصيحة سراً مطلوبة حينئذ . والناصح والموجه والمرشد يتحرى ما هو الأصلح ، فإذا كانت النصيحة والدعوة والإعانة على الخير جهراً تنفع الحاضرين وتعم بها المصلحة - فعل ذلك وإذا كانت المصلحة تقتضي أن يكون التناصح في حالة السر - فعل ذلك ؛ لأن المقصود حصول الخير والنفع للمنصوح وللمجتمع ، فالوسيلة المؤدية إلى ذلك هي المطلوبة سواء كانت سرية أو جهرية ، والناصح والداعي إلى الله كالطبيب يتحرى الوقت المناسب والكمية والكيفية المناسبة ، فهكذا يكون الداعي إلى الله والناصح لعباده يتحرى ما هو الأنسب وما هو الأصلح وما هو الأقرب للنفع »[١] .

---

(١) الفتاوى ، جـ٧ ، ص٢٧٢ .

وهذه النظرة الشرعية الثاقبة هي نظرة العلماء العاملين الناصحين على مر العصور ، يقول الدكتور عبد الله الحوشاني في كتابه عن منهج ابن تيمية في الدعوة وعن موقفه في مناصحة الولاة :

« فطاعتهم وعدم منازعتهم لا تعني إقرارهم على أخطائهم ومنكراتهم ، لأن نصح الحكام من أعظم واجبات أهل العلم خصوصاً ، والأمة عموماً « فذلك ما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم هو واجب على المسلم ، وإن استأثروا عليه – ويقرر وجوب ذلك – وإن لم يعاهدهم عليه ، وإن لم يحلف لهم الأيمان المؤكدة . . فإذا حلف على ذلك كان ذلك توكيداً أو تثبيتاً لما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم . . فإن ما أوجبه الله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم واجب وإن لم يحلف عليه ، فكيف إذا حلف عليه؟ . . ولا يجوز لأحد أن يفتيه بمخالفة ما حلف عليه ، والحنث في يمينه . . »[١] .

إن من مناصحتهم « متابعتهم في الحسنات التي لا يقوم بها إلا هم ، فإنه من باب التعاون على البر والتقوى » وما نهى عنه من تصديقهم بكذبهم ، وإعانتهم على ظلمهم ، وطاعتهم في معصية الله ونحو ذلك، مما هو من باب التعاون على الإثم والعدوان ، وما أمر به أيضاً من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لهم ولغيرهم على الوجه المشروع ، ما يدخل في ذلك من تبليغ رسالات الله إليهم ، بحيث لا يترك ذلك جبناً ، ولا بخلاً ، ولا خشية لهم ، ولا اشتراء للثمن القليل بآيات الله ، ولا يفعل أيضاً للرئاسة عليهم ، ولا على العامة ، ولا للحسد ، ولا للكبر ، ولا

---

(١) الفتاوى (٣٥/٥) .

للرياء لهم ولا للعامة ، ولا يزال المنكر بما هو أنكر منه ، بحيث يخرج بالسلاح ، وتقام الفتن ، كما هو معروف من أصول أهل السنة والجماعة كما دلت عليه النصوص النبوية ، لما في ذلك من الفساد الذي يربو على فساد ما يكون من ظلمهم ، بل يطاع الله فيهم وفي غيرهم ، ويفعل ما أمر به ، ويترك ما نهى عنه ... »[١] .

فهو إذاً يفرق بين واجب النصيحة للولاة ، وقول كلمة الحق وعدم الجبن في ذلك – ولزوم تبليغ الحق إليهم والقيام عليهم من أجل تنفيذه ، ومنعهم من المنكرات ، وإفساد الرعية بالطرق اللطيفة وغير اللطيفة – وبين العصيان المسلح والثورة والخروج عليهم ونبذ طاعتهم من غير كفر بواح ، فهذا مرفوض في منهج ابن تيمة رفضاً مطلقاً حاسماً ، وحتى الأسباب والأمور التي توصل إليه يمنعها ويحرمها تحريماً قاطعاً ، ويرى الصبر على الجور والظلم والعدوان على حقوق الناس ، وأن هذا أسلم للأمة من خلع البيعة والخروج على الأئمة »[٢] .

وإليك بعضاً من رسائل الشيخ – رحمه الله – إلى لملوك والأمراء والسلاطين :

---

(١) الفتاوى (٣٥ / ٢١) .

(٢) منهج ابن تيمية في الدعوة (٢ / ٤٨٢) .

نماذج من الرسائل :

١ - رسالة إلى الملك فيصل - رحمه الله - :

من عبد العزيز بن عبد الله بن باز إلى حضرة جلالة الملك المعظم فيصل بن عبد العزيز وفقه الله لكل خير وبارك في حياته .. آمين .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

وبعده : حفظكم الله لا يخفى على جلالتكم مركزكم العظيم الذي هو محط آمال المسلمين بعد الله عز وجل ، وذلك بسبب ولايتكم لقبلة المسلمين ومهاجر الرسول الأعظم ﷺ ، فمن هذه البقاع المباركة شع نور الرسالة فأضاء الكون ومزق أستار الظلام، ومن هذه البقاع المقدسة حمل الرعيل الأول مشعل الهداية إلى العالم وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله فدان لهم سكان الأرض وساد الإسلام .

أقول : إنه بحكم ولايتكم لهذه البقاع المقدسة وميراثكم لتراث الأسلاف الكرام ، فإنه يتحتم عليكم ولا شك حمل راية الدعوة إلى هذا الدين القويم وراية الجهاد في سبيل الله حيث أمكن ، وقد فعلتم ذلك مشكورين ، فالحمد لله على توفيقكم لذلك .

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين تحذيراً للأمة من كتمان الحق وتشجيعاً على الجهاد والدعوة : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ** ﴾[١] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٨٧ .

وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١) .

وقال جل وتقدس : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣) .

وقال النبي ﷺ في خطبته يوم الحج الأكبر : « ألا فليبلغ الشاهد الغائب » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « بلغوا عني ولو آية » ، وقد هيأ الله في هذا العصر من أسباب الاتصال بجميع العالم ما هو معلوم ، الأمر الذي يجعل الدعوة إلى الله متيسرة ، وجلالتكم في هذا العصر هو المسؤول الأول عن إبلاغ أمر الله إلى عباده ، ولا شك أنها مسؤولية خطيرة تحتاج منكم إلى جهود عظيمة وصبر ومصابرة .

وبمناسبة قرب زمن الاحتفال بالذكرى الخامسة والعشرين لقيام هيئة الأمم في شهر يونيو القادم ودعوة ملوك ورؤساء الدول الأعضاء في المنظمة إلى إلقاء كلمات في الجلسة التذكارية لها ، لذلك فإني أهيب بهمة جلالتكم أن تشمروا عن ساعد الجد وتنتهزوا هذه الفرصة الثمينة بالدعوة إلى الإسلام وتحكيم شريعته في هذا الاجتماع الذي سوف يضم

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٦٩ ، .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٢١ .

(٣) سورة فصلت ، الآية ٣٣ .

أكثر رؤوساء دول العالم الإسلامي وغيرهم ، وأن تبينوا لهم محاسن الإسلام ، وأنه دين الحق ، وأنه الدين الكامل الصالح لكل عصر وأوان ، والمشتمل على مصالح الدنيا والآخرة ، وأنه دين السعادة والفلاح ، وأنه السبيل الوحيد لإنقاذ البشرية الحائرة التائهة في خضم أمواج الظلم والطغيان وديا جير الجهل والضلال إلى شاطئ السلامة والأمان ، وهو السبيل الوحيد لحل مشكلاتها وإفهام الجميع بأن رسالة محمد ﷺ عامة للناس جميعاً ، وأن من أجابه دخل الجنة ، ومن أبى دخل النار ، وفي ذلك إقامة الحجة عليهم وبراءة للذمة من تبعة السكوت عن البلاغ .

وإني لأرجو لجلالتكم بذلك الرفعة والعزة والسؤدد في الدنيا والفوز ورفع الدرجات في الجنة .

ولمحبة الخير لكم وللمسلمين وغيرهم والمناصحة في الحق والتعاون على البر والتقوى والرغبة في انتشار الدعوة الإسلامية وإبلاغها لعموم الناس رأيت أن أذكركم بهذا الأمر العظيم ، وجلالتكم من أعلم الناس بالواقع وما أصاب العالم اليوم من فساد وانحلال وحيرة وقلق وإلحاد وانحراف .

فأرجو أن يكون هذا الأمر موضع الاهتمام والتنفيذ ، وأسأل الله أن يصلحكم ويصلح بكم ويهديكم ويهدي بكم ، وأن يعلي ذكركم في الدنيا والآخرة ، وأن ينفع بكم العباد ، وينقذهم بدعوتكم من الكفر والضلال إلى الهدى والاستقامة على الحق إنه جواد كريم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..... نائب رئيس الجامعة

الإسلامية بالمدينة المنورة »[١] .

ولقد كان الملك فيصل – رحمه الله – يجل الشيخ كثيراً ، ويكن له كل حب واحترام كغيره من ملوك هذه البلاد المباركين ، فهذا هو الملك فيصل في إحدى كلماته التي ألقاها في حفل الجامعة الإسلامية بالمدينة حينما زارها في عام ١٣٨٤ هـ يقول : « وأنتهز هذه الفرصة لوجود الأخ الأكبر وأنا أتحاشى أن أقول الوالد الشيخ عبد العزيز بن باز لئلا يظن أنني أعتقد أنه كبير السن .

ولكن من جهة أخرى فإني أعتبره والداً لي ، وأن على عاتق الشيخ عبد العزيز بن باز مهمة جليلة ، ومسؤولية كبيرة فيما يقوم به من أعمال لخدمة الإسلام والمسلمين ، ليس في هذه البلاد فقط ، ولكن في جميع بلاد العالم الإسلامي أجمع .

وإنني أتقدم إليه راجياً أن يتحفنا ولو بكلمتين في هذه المناسبة السعيدة ، وأرجو الله التوفيق للجميع ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »[٢] .

٢ – رسالة إلى الرئيس الباكستاني الراحل ضياء الحق – رحمه الله – :

هذه رسالة من رسائل الشيخ لأحد الزعماء الذين أرادوا التوجه بشعوبهم إلى رحاب الشريعة ، ومراتع الإيمان ، وهو الرئيس الباكستاني ضياء الحق – رحمه الله – الذي تآمر عليه الأعداء ودبروا مكيدة لقتله ،

---

(١) الفتاوى ، جـ ٦ ، ص ٧٢ .

(٢) جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز – رحمه الله – للشيخ محمد الحمد ، ص: ٢٧٤ .

لا لشيء إلا لأنه أعلن تطبيق الشريعة الإسلامية ،ولقد رأيت عند الشيخ من أمثال هذه الرسالة عشرات الرسائل :

« فخامة رئيس حكومة باكستان الإسلامية محمد ضياء الحق ، نصر الله به دينه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

لقد سمعنا ما تناقلته الإذاعات والصحف من إعلان فخامتكم تحكيم الشريعة الإسلامية في باكستان ، فسرنا ذلك كثيراً كما سر كل مسلم على وجه الأرض ، وإنه ليسرني أن أعرب لفخامتكم عن شكري وعظيم تقديري لهذا العمل الجليل الذي يرضاه الله ورسوله ويرضاه كل مسلم ، وهو الواجب عليكم وعلى جميع حكام المسلمين فجزاكم الله خيراً وأمدكم بتوفيقه ونصركم بالحق ونصر الحق بكم .

وأنا وجميع المسلمين نشارك الشعب الباكستاني بالفرحة العظيمة والسرور البالغ بهذا النبأ العظيم ، الذي أنشئت من أجله الباكستان ، ولم يزل أبناؤها المخلصون ينتظرون ذلك ويبذلون في تحقيقه كل ما أمكنهم من الوسائل ، حتى يسره الله على يد فخامتكم مهنئاً لكم بهذه المنحة العظيمة والنعمة الكبرى ، ويحق لنا جميعاً أن نفرح بذلك ونسر به ونشكر الله عليه عملاً بقول الله سبحانه : ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ (١) .

فسيروا على بركة الله ، والله ناصركم ومؤيدكم ما دمتم تنصرون دينه وتحكمون شريعته كما قال الله سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن**

---

(١) سورة يونس : ٥٨ .

تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (١).

وقال عز وجل : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٢).

ولا شيء أحسن من حكم الله العالم بأحوال عباده ومصالحهم في العاجل والآجل كما قال الله عز وجل : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٣).

وفقكم الله وثبتكم على الحق وأكثر أعوانكم فيه إنه سميع قريب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» .

وللشيخ – رحمه الله – رسالة أخرى كان قد بعثها إلى باكستان حكوماً وشعباً ، يقول فيها : «الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه .

أما بعد : فإني أوصي إخواني في الباكستان حكومةً وشعباً بتقوى الله سبحانه في جميع الأمور ؛ لأنها وصية الله سبحانه ، ووصية رسوله الأمين محمد ﷺ كما قال الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾(٤) ، وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ

---

(١) سورة محمد : ٧ .
(٢) سورة الحج : ٤٠ – ٤١ .
(٣) سورة المائدة : ٥٠ .
(٤) سورة النساء : ١٣١ .

الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[١] .

وكان النبي ﷺ يوصي أمته في خطبه بتقوى الله ، والتقوى كلمة جامعة تجمع الدين كله ، وتشمل العناية بمصالح الدنيا والآخرة ، وهي الدين كله ، وهي البر ، وهي الإيمان ، والإسلام ، والهدى ، والصلاح ، وسمى الله سبحانه دينه تقوى ؛ لأن من استقام عليه ، وحافظ عليه ، وقاه الله شر الدنيا والآخرة .

وأهم التقوى إخلاص العبادة لله وحده ، والصدق في متابعة رسوله ﷺ ، وتحكيم شريعته في جميع الأمور ، والحذر مما يخالفها ، كما قال الله سبحانه : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ** ﴾[٢] ، وقال سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾[٣] ، وقال عز وجل : ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾[٤] ، وقال سبحانه : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾[٥] .

ولا يخفى على ذوي الألباب أن في تحكيم الشريعة صلاح أمر الدنيا

---

(١) سورة النساء : ١ .

(٢) سورة البينة : ٥ .

(٣) سورة البقرة : ٢١ .

(٤) سورة المائدة : ٥٠ .

(٥) سورة النساء : ٦٥ .

والآخرة ، كما أن فيها جمع الكلمة على الحق ، والقضاء على الفساد .

ومن أهم التقوى التعاون على البر والتقوى ، والتواصي بالحق والصبر عليه واتحاد العلماء ، واجتماع كلمتهم على الحق ، وإرشاد العامة إلى أسباب النجاة ، وتحذيرهم من أسباب الهلاك ، ومناصحتهم ولاة الأمور ، وإعانتهم على الخير ، كما قال النبي ﷺ : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » .

كما أوصي الجميع بالحذر من جيمع أنواع الشرك والبدع والمعاصي ؛ لأن ظهورها في المجتمع سبب لهلاك الجميع ، والحذر منها والتواصي بتركها من أعظم أسباب النجاة .

ولا صلاح للمجتمع الإسلامي إلا بالتعاون على البر والتقوى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وهذه هي أخلاق المؤمنين وصفاتهم كما قال الله سبحانه : ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[1] .

وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

---

(١) سورة التوبة : ٧١ .

وقال ﷺ : « الدين النصيحة ، قيل لمن يا رسول الله؟ قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة ، وأسأل الله عز وجل أن يوفقنا وجميع إخواننا في الباكستان ، وجميع المسلمين لما فيه رضاه ، وصلاح عباده ، وأن يصلح قلوبنا وأعمالنا جميعاً ، وأن يمن على الجميع بالفقه في دينه ، والثبات عليه ، والدعوة إليه على بصيرة ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه .

رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

عبد العزيز بن عبد الله بن باز »[١]

٣ - رسالة شكر إلى الملك حسين على منع إقامة تمثاله :

من عبد العزيز بن عبد الله بن باز إلى حضرة جلالة الملك الكريم حسين بن طلال ملك المملكة الأردنية الهاشمية – عمّان ، وفقه الله لما فيه رضاه ونصر به دينه . . آمين :

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد :

فلقد أبلغني صاحب الفضيلة الشيخ سعد بن عبد الرحمن الحصين الملحق الديني بسفارة المملكة العربية السعودية في عمان في كتابه المؤرخ

---

(١) جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز ، ص : ٤٤٤ .

في ٥ / ١ / ١٤١٧ هـ أن جلالتكم قد منع إقامة تمثال لكم في عمّان ، فسرني ذلك كثيراً ، وشكرت لجلالتكم هذا العمل ، ورأيت الكتابة إلى جلالتكم في ذلك شاكراً ، وراجياً من جلالتكم إصدار الأمر الكريم بتحكيم الشريعة المطهرة في المملكة الأردنية الهاشمية في جميع الشؤون، كما حكم بها جدكم أفضل الخلق محمد ﷺ ، وحكم بها خلفاؤه الراشدون وأئمة الهدى بعدهم ؛ عملاً بقول الله سبحانه : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾[١] ، وقوله عز وجل : ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾[٢] ، ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾[٣] ، ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[٤] .

ولا يخفى على مثل جلالتكم أن في تحكيم الشريعة المطهرة صلاح أمر الدنيا والآخرة والفوز بالسعادة الأبدية .

فأسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يشرح صدركم لذلك ويعينكم عليه ، وأن يصلح لكم البطانة ، وأن يعيذنا من مضلات الفتن وبطانة السوء ، ونزغات الشيطان إنه جواد كريم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »[٥] .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٦٥ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٥٠ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ٤٥ .

(٤) سورة المائدة ، الآية ٤٧ .

(٥) الفتاوى ، جـ ٨ ، ص : ٤٤٨ .

٤ - رسالة للرئيس العراقي :

وكتب الشيخ برقية بعثها للرئيس العراقي عبد السلام محمد عارف ، وذلك في عام ١٣٨٢ هـ حينما كان نائباً لرئاسة الجامعة الإسلامية ، وهي كلمة يوصيه فيها بتحكيم الشريعة الإسلامية :

سيادة الأخ عبد السلام محمد عارف رئيس الجمهورية العراقية بغداد

سرنا انتصاركم على الملحدين والشيوعيين أعداء الإسلام ، ونرجو أن من شكركم لهذه النعمة العظيمة تحكيم كتاب الله ، والسير على هدي رسول الله ﷺ فهما كفيلان بسعادة المجتمعات والأفراد ، وباتباع تعاليم الإسلام يسود العدل ، وتحصل الطمأنينة والاستقرار لجميع المواطنين .

وفقكم الله والعاملين معكم لما فيه رفعة الإسلام والمسلمين ، وسعادة الشعب

نائب رئيس الجامعة الإسلامية

عبد العزيز بن عبد الله بن باز »[١]

---

(١) جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز ، ص : ٥٢٧ .

٥ - رسالة إلى بعض أمراء الخليج :

من عبد العزيز بن عبد الله بن باز إلى حضرة الأمير المكرم (.....) وفقه الله ونصر به الحق .. آمين .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد :

فقد كتب إليّ بعض الناصحين عن قبر يوجد في بلدكم ، وذكر أنه يعبد من دون الله ، ونرفق لكم نسخة من رسالته ومعها صورتان للقبر المذكور، فأرجو من سموكم التكرم بالأمر على من يلزم بهدم هذا القبر ، ومنع الناس من الغلو فيه ، والذبح لصاحبه؛ لأن الغلو في القبور من أعمال الجاهلية الأولى ، والتقرب إلى أهلها بالذبح أو بالنذور ، أو بالاستغاثة وطلب المدد كله شرك بالله عز وجل ، وكله من أعمال الجاهلية الأولى. فالواجب على حكام المسلمين منع ذلك والقضاء عليه.

وينبغي أن ينقل رفات القبر إلى المقبرة العامة ، على أن يحفر له عدة قبور ويوضع الرفات في أحدها ثم يسوى الجميع على صفة القبور حتى يخفى على الناس وحتى لا يعرف خشية الغلو فيه مرة ثانية ، وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعل هذا العمل في قبر دانيال الذي كانت الفرس تغلو فيه ، فأمر أن يحفر له ثلاثة عشر قبراً نهاراً ثم يدفن في أحدها ليلاً ، ثم تسوى القبور حتى يخفى أمره على الناس .

جعلكم الله مباركين أينما كنتم ونصر بكم دينه ووفقكم لما يحبه ويرضاه وحمى بكم حمى الشريعة المطهرة من كل ما يخالفها إنه جواد كريم ... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »[١].

---

(١) الفتاوى ، جـ٦ ، ص : ٢٢٨ .

٦ - رسالة إلى أحد أمراء المناطق في المملكة :

من عبد العزيز بن عبد الله بن باز إلى حضرة صاحب السمو الملكي الأمير المكرم (.....) وفقه الله للخير آمين ..

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد :

حفظكم الله ، علمت بإسناد جلالة الملك حفظه الله إلى سموكم الإمارة بمنطقة (.....) وبهذه المناسبة فإني أهنىء سموكم بهذه الثقة الملكية ، وأسأل الله سبحانه أن يجعلكم عند حسن ظن جلالته وأن يزيدكم من التوفيق ، وأن يمنحكم إصابة الحق في القول والعمل ، ولا يخفى على سموكم أن الولاية شأنها عظيم وخطرها كبير، كما قال النبي ﷺ : « إنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها » . [أخرجه مسلم]

وعليه فإني أوصي سموكم ونفسي بتقوى الله والمحافظة على دينه ، وأن تكونوا قدوة في كل خير ، وأن تهتموا بشؤون المسلمين أعظم اهتمام، وأن تعطوا الأمور الدينية أكبر قسط من العمل والعناية ، وأن تساندوا هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتشجعوهم ؛ لأن صلاح العباد والبلاد بالله سبحانه ثم بقيام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يخفى أن قوة الهيئة ونشاطها بالله سبحانه ثم بتعضيد ولاة الأمور ووقوفهم في صفهم ، مع حثهم على التثبت في الأمور والرفق في كل شيء .

ومن الأمور المهمة المبادرة بتنفيذ الأحكام الشرعية بكل حزم وقوة ، والتأكيد على الجهات المختصة بذلك حتى يصل الحق إلى مستحقه بدون تعب ولا مشقة .

ومن المهمات أيضاً المحافظة على الصلاة في الجماعة والتأكيد على الموظفين والخدام بذلك حتى يكون الجميع قدوة في الخير.

ومن الأمور المهمة أيضاً حفظ الوقت والحرص على الإشراف بأنفسكم على حاجات المسلمين التي ترفع إليكم لإيلائها ما تستحق من العناية .

وأسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يوفقكم لكل خير ، وأن يعينكم على أداء ما يجب عليكم ، وأن يمنحكم البطانة الصالحة وأن ينصر بكم الحق وأهله ، ويخذل بكم الباطل وأهله ، وأن يجعلنا وإياكم من الهداة المهتدين ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »[١] .

٧ - رسالة في قضية دولية :

لقد كان الشيخ - رحمه الله - يرى أن من واجب التعاون والتعامل مع ولاة الأمور والحكام والزعماء أن يناصحهم ويذكرهم بالله فيما يكون من الخلافات الداخلية أو الخارجية ، ومن ذلك أنه بعث رسالة إلى الرئيس المصري حسني مبارك في قضية الخلاف مع السودان في منطقة (حلايب) ، واقترح أن تكوّن لجنة على مستوى رفيع من أهل العلم بالشرع ليحكموا في الموضوع بما يقتضيه الشرع ، وبين له أن التحاكم إلى محكمة العدل الدولية لا يجوز ، وأن الواجب التحاكم إلى الشرع المطهر[٢] .

---

(١) الفتاوى ، جـ٦ ، ص : ٢٢٩ .

(٢) راجع كتاب جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز ص : ٣١٨ .

٧ - رسالة إلى جميع القادة :

ونختم هذه الرسائل الصادقة ، والتوجيهات الرائقة ، والكلمات الواثقة بهذه الرسالة الموجهة إلى جميع قادة الدول العربية في مؤتمرٍ من مؤتمراتهم في عام ١٣٨٧ هـ حينما كان الشيخ يشغل منصب نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وإنها رسالة جديرة بالقراءة والنشر والتوزيع على جميع القادة ولا سيما في مثل هذه الأيام والظروف التي يعيشها العرب والمسلمون :

« حضرات أصحاب الجلالة والفخامة من قادة الدول العربية ، وفقهم الله لما فيه رضاه وصلاح أمر عباده . . آمين .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . أما بعد :

فبمناسبة هذا الاجتماع العظيم الذي تعلق عليه الشعوب العربية والأمة الإسلامية الآمال الكبيرة لإزالة آثار العدوان اليهودي والقضاء على عصابات الصهاينة واسترجاع الأرض السليبة من أيديهم ، رأيت أنه من الحق عليّ نصحاً لله ولكتابه ولرسوله ﷺ ولكم أيها القادة ، وإسهاماً في الإصلاح العام ، ومعذرة إلى الله عز وجل أن أبعث إلى حضراتكم من الجامعة الإسلامية من بلد المصطفى ﷺ الوصايا التالية :

أولاً : تقوى الله عز وجل في جميع الأمور ، والتواصي بالاستقامة على دينه ، وتحكيم شريعته ، والتحاكم إليها ، ومحاربة ما خالفها من المبادئ والأعمال ؛ لأنكم قادة العرب والمسلمين وبصلاحكم واجتماع كلمتكم على الهدى يصلح الله شعوبكم وسائر المسلمين إن شاء الله ، وتعلمون جميعاً أنه لا عزة لكم ولا منعة ولا هيبة ولا انتصار محققاً

ومضموناً على الأعداء إلا بالتمسك بالإسلام وتحكيمه والتحاكم إليه ، كما جرى على ذلك سلفكم الصالح ، فأيدهم الله ونصرهم كما وعدهم سبحانه في قوله : ﴿ **إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾ (١) وفي الإسلام حل لجميع المشكلات وإصلاح لجميع الشئون وتحقيق العدالة بين الجميع بأكمل معانيها إذا صلح القصد وبذلت الجهود ووسدت الأمور إلى أهلها .

ثانياً : التسامح وصفاء القلوب ، وتوحيد الصف واتفاق الكلمة على هدف واحد ، وهو اتباع الشريعة وترك ما خالفها ، والعمل على إزالة آثار العدوان اليهودي والقضاء على ما يسمى بدولة إسرائيل نهائياً ، وتكاتف جميع الجهود والقوى لهذا الغرض النبيل مع الاستعانة بالله والاستنصار به في ذلك ، عملاً بقول الله سبحانه : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ (٢) ، وقوله عز وجل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم** ﴾ (٣) ، وما جاء في هذا المعنى من الآيات والأحاديث .

ثالثاً : تكوين جيش مشترك قوي موحد مجهز بأكمل الأسلحة الممكنة تحت قيادة موحدة أمينة مرضية من الجميع تستند إلى مجلس شورى مكون من وزراء الدفاع وأركان الجيش في جميع الدول العربية ، ومن أحب أن ينضم إليها من الدول الإسلامية ، ليسير المجلس في جميع شئونه على قواعد ثابتة وأسس مدروسة من الجميع ، رجاء بأن يحقق الغرض المطلوب ، ولا يخفى على حضراتكم ما في هذا المجلس من الخير

---

(١) سورة محمد : ٧ .
(٢) سورة الأنفال : ٦٠ .
(٣) سورة النساء : ٧١ .

العظيم والحيطة والسير على هدي الشريعة وتعاليمها الحكيمة والعمل بقول الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ : ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ (١) ، وقوله سبحانه في وصف المؤمنين : ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾ (٢) .

رابعاً : الحياد التام وعدم الانحياز إلى كتلة شرقية أو غربية ، وبذل الجهود على أن تكونوا كتلة مستقلة تستفيد من خبرات غيرها وسلاحه من غير انحياز أو تدخل من الغير في شؤونها الداخلية أو الخارجية ، ولا يخفى أن هذا الحياد أقرب إلى السلامة في الدين والدنيا ، وأكمل في العزة والكرامة والهيبة ، وأسلم من تدخل الأعداء في شؤونكم والاطلاع على أسراركم ، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال لرجل أراد أن يغزو معه يوم بدر : « هل أسلمت »؟ قال : لا ، قال : ارجع فلن نستعين بمشرك » مع أنه ﷺ استأجر دليلاً مشركاً في طريق الهجرة ، واستعار من بعض المشركين دروعاً يوم حنين ، فدل ذلك على أن الاستعانة بسلام الأعداء والاستفادة من خبرتهم لا مانع منهما وليستا بداخلتين في الاستعانة التي نفاها النبي ﷺ في الحديث السابق إذا لم يكن لهم دخل في شؤوننا ولا مشاركة في الجيش .

هذا ما بدا لي عرضه على حضراتكم على سبيل الإشارة والإيجاز ، والله المسئول أن يصلح قلوبكم وأعمالكم ويسدد خطاكم ويجمع كلمتكم على ما فيه سعادتكم وسعادة المسلمين جميعاً وانتصاركم على عدوكم ، إنه ولي ذلك والقادر عليه . . والسلام عليكم ورحمة الله

---

(٤) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٥) سورة الشورى : ٣٨ .

وبركاته . . »[١] .

صـــور من روائع العلم تبـــدو ... لـلمـــــريدين في أتم الجـــلاء
وحـيـاة مـعـمـورة بالسـجـايا ... في مـــزيج من التـــقى والإباء
يا فـقـيـهـاً تعجَّب الفـقـه منه ... ومـضى فـيـه حـامـلاً للواء
ســـابراً غـــوره بفـــهـم ذكي ... واخـتـيـار مـوفق وانتـقـاء
أنت في النحـو عـالم لا يبـارى ... أو يجـارى أذكـرتنا بالكسـائي
ومـعـان من التـفـاسـيـر مـثلي ... تتـحـدى مـعـانيَ الفـراء
وعـــرفناك واعظاً لوذعـــيـــاً ... بات أزكى نهـجـاً من الإحـيـاء
وحـديثـاً عن سـيـد الخلق يُروى ... كنتَ فـيـه كـمـسلم والنسـائي
عطر وحي عن جـابر وابن صـخـر ... ومـــعـــاذ وعـن أبي الـدرداء
لغـــة تـنشـــر الرضى وبيـــان ... صـادق القـصـد هَازِئٌ بالرياء
هـمـــة تبلغ الثـــريا وبـذل ... لا يجـارى في روعـة ومـضـاء
زاهـد صـادق المشـاعـر بالحـ ... ـب بعـيـدٌ عن مـسرح الضـوضـاء
قـدس العلم عن غـرور التـبـاهي ... أو مـسـيـرٍ في مـوكب الأهواء
ليس يغـريه بهـرج أو مـديح ... أو فـنـونٌ من واحـــة الإطراء
واحـتـمى بالدليل عن كل زيفٍ ... فـتـبـدّى في رفـعـةٍ واهتـداء

---

(١) الفتاوى ، جـ٦ ، ص : ٦٣ .

سلبيات في التعامل والتعاون مع الولاة

بعد أن رأينا ذلك المنهاج الأتم ، والأسلوب الأشم ، الذي ينبثق من بوتقة الشريعة، ويتدفق من أنهار الوحي العذبة الرقراقة ، فإنه من المناسب أن نتعرض لبعض التصورات القاصرة التي تقبع في كثير من الأذهان فينتج عنها تصرفات خاطئة ، وأحكام طائشة في التعامل والتعاون مع الزعماء والكبراء والأمراء ، ومما يؤسف له أن كثيراً من هذه التصورات وتلك الانطلاقات تكون مترسبة في أذهان بعض ذوي العلم ، وأرباب المعرفة، وبعض الذين قد وُفقوا في جوانب متعددة من أمور الحياة الدعوية، والمسيرة الإسلامية ولكنهم أخفقوا في هذا الجانب ، ليس لعيب في عقولهم ، ولا نقص في أفهامهم ، ولكن اعتبارات عديدة ، ودوافع كثيرة ، لم تَدَعْهم يسمحوا لأنفهسم بتأمل هذا الأمر ، ودراسة أبعاده ، وتفهم آماده ، وسوف يتجلى لنا شيء منها فيما سنورده من سلبيات ، وتجدر الإشارة قبل إيراد تلك السلبيات أنه لا يعني أن الجانب الآخر وهم الولاة والزعماء معصومون من الخطأ ، منزهون عن الزلل ، بل لكثير منهم سلبيات مزعجة ، وتصرفات مؤلمة ، ولكن صاحب العلم وحامل الفقه ينطلق مما يمليه عليه الشرع ، ويؤكده العقل ، ويتحمله الواقع ، لا مما تمليه الأحداث ، وتثيره الأيام ، وإليك الآن جملة من السلبيات في هذا الأمر :

١ - التعامي عن النصوص :

هنالك أناس إذا فوجئ أحدهم بالنصوص الساطعة ، والأدلة اللامعة، والحجج القاطعة ، من الكتاب العظيم والسنة الذائعة ، فإنه يتعامى عنها،

ويغض الطرف ، ويكبح جماح الفهم ، وكأنها لا تعنيه ، بل ربما تمنى أنها لم توجد أصلاً ، وليس ذلك عند كثير من هؤلاء عن قصد سيئ ، أو نية فاسدة ، بل لأن بعضهم لشدة غيرته على الدين ، وكرهه للمعصية يود أن يكون أكثر غيرة على الدين من الدين ، وأشد هماً للإسلام من حامل لوائه وخاتم أنبيائه ، وهذا توجه مغالٍ ، ونظر مدمر يجر المرء إلى أمور لا تحمد عقباها ، فلسنا أحرص على دين الله من الله ، ولا أحب لمنهاجه من نبيه ﷺ ، ولكن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ، فنقف في غيرتنا وغضبنا وإنكارنا حيث وقف بنا الشرع الكريم ، وحيث أذن لنا النهج القويم ، ولا نبتدع لأنفسنا رهبانيات وتصورات ما كتبها الله علينا، ولا نؤمن ببعض الكتاب والسنة ونتنكر لبعض .

٢ - تأويل غير محمود :

ومن الناس من إذا ثبتت لديه الأدلة ، وتأكدت عنده البراهين ، فإنه يذهب بها مذهباً آخر ، ويسلك بها طريقاً مختلفاً ، فيتمحل في تأويلها ، ويتكلف في توجيهها، وما قيل عن الصنف الأول يقال عن هذا الصنف .

٣ - سلاطين ربانيون :

وهناك من يظن أن الوالي أو الأمير أو الملك أو الرئيس يجب أن يكون من الخلفاء الراشدين المهديين ، فإن لم يكن فمن العشرة المبشرين بالجنة، فإن لم يكن فمن الفقهاء الأربعة ، فإن لم يكن فمن أقران ابن تيمية وابن القيم وابن حجر ومحمد بن عبد الوهاب وابن باز وأنى يكون ذلك؟!! ، إن التاريخ يثبت خلاف ذلك ، ولكن إذا وجد أمير أو حاكم أذعنت له الناس ، وخيم بوجوده الأمن ، وحفظت بسببه الأرواح والممتلكات ، ولم

يحل دون الناس ودون عبادتهم لربهم ، فإن هذه المكاسب الكبيرة يجب المحافظة عليها ، ولا يجوز التسبب في ضياعها مهما كان فيه من الظلم والإسراف في المعاصي .

٤ - كما تكونوا يول عليكم :

نحن المسلمين تعودنا دائماً أن نعلق أخطاءنا على غيرنا ، وكأننا نزكي أنفسنا ونلقي باللائمة دائماً إما على الأعداء ، أو على السلاطين ، أو على العلماء .. إلى غير ذلك وننسى أحياناً كثيرة أننا :

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيبٌ سوانا

يقول شيخ الإسلام – رحمه الله : « وقد ذكرت في غير هذا الموضوع أن مصير الأمر إلى الملوك ونوابهم من الولاة والقضاة والأمراء ، ليس لنقص فيهم فقط ، بل لنقص في الراعي والرعية جميعاً فإنه : « كما تكونوا يول عليكم » ، وقد قال تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا** ﴾ [١] .

ويقول الحسن البصري – رحمه الله – : « اعلم – عافاك الله – أن جور الملوك نقمة من نقم الله تعالى ، ونقم الله لا تلاقى بالسيوف ، وإنما تُتقى وتستدفع بالدعاء والتوبة والإنابة والإقلاع عن الذنوب »[٢] .

وقيل : سمع الحسن رجلاً يدعو على الحجاج ، فقال : لا تفعل – رحمك الله – إنكم من أنفسكم أُتيتم ، إنما نخاف إن عُزل الحجاج أو مات : أن تليكم القردة والخنازير.

---

(١) سورة الأنعام : ١٢٩ .

(٢) كتاب « آداب الحسن البصري » لابن الجوزي : (ص ١١٩ – ١٢٠) .

ولقد بلغني : أن رجلاً كتب إلى بعض الصالحين يشكو إليه جور العُمال ، فكتب إليه :

« يا أخي! وصلني كتابك تذكر ما أنتم فيه من جور العمال ، وإنه ليس ينبغي لمن عمل بالمعصية أن يُنكر العقوبة ، وما أظن الذي أنتم فيه إلا من شؤم الذنوب . والسلام »[١] .

ويقول ابن أبي العز الحنفي : « وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا ؛ فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم ، بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات ، ومضاعفة الأجور؛ فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا والجزاء من جنس العمل؛ فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ** ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾[٥] .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) سورة الشورى ، الآية ٣٠ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٦٥ .
(٤) سورة النساء ، الآية ٧٩ .
(٥) سورة الأنعام ، الآية ١٢٩ .

فإذا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير الظالم ، فليتركوا الظلم .

وعن مالك بن دينار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه جاء في بعض كتب الله : « أنا الله مالك الملك ، قلوب الملوك بيدي ، فمن أطاعني جعلتُهم عليه رحمةً ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمةً ، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ، لكن توبوا أعطفهم عليكم »[١] .

٥ - ابدأ بنفسك :

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

عجب أمر بعض الناس سواء كانوا أفراداً أو جماعات يطالبون الحكومات ، وينتقدون الولايات ، ويصدرون البيانات ، ويتحدثون عن الأخطاء والمخالفات مع أنهم هم لم يصلحوا ما عندهم من أخطاء ، وما لديهم من أدواء ، قبل أن يصلحوا ما عند الآخرين ، كم من التواءا ت مخيفة ، وسراديب مظلمة ، وأفكار محيرة ، وحزبيات معقدة ، واتهامات متشددة ، وتعصبات مُبددّة ، فهلا بدأ هؤلاء أولاً بتقويم اعوجاجهم، وإصلاح أخطائهم ، والانتصار على أنفسهم لينتصروا على غيرهم .

٦ - التناقض في الثقة :

هذه من السلبيات المشينة ، والتناقضات المبينة ، وهي أن يوثق في العالم من جهة، وتسحب الثقة من جهات أخرى ، وذلك من تلبيس

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ص : ٣٨١ .

إبليس وزيادة إغرائه وإغوائه للمرء حتى لا يبصر الحق ولا يقبله ، لقد كان من أعجب العجب ما يحدث من أناس حينما يتداولون فتاوى الشيخ مثلاً في أمور كثيرة ، ويثقون فيها ، ويقتنعون بها ، بل إن هنالك نوعاً من الفتاوى يطيرون بها فرحاً ، ويزدادون بها سروراً ؛ لأنها تضرب على أوتار حساسة ، وتصب فيما يناسبهم من السياسة ، ولكن الصدور تضيق ، والأوجه تعبس ، والقناعة تحجم ، والقبول يُعدم ، إذا كانت الفتوى تتعلق بما لولاة الأمر من الحقوق، أو تنهى عن العقوق ، فهنالك تغص بها الحلوق ، فحينما تقرأ على الواحد كلاماً في الثناء على أمير أو الدعاء لوزير ، أو الشكر لملك ، أو الاعتراف بجميل زعيم، فكأنما سقيته سمّاً ، أو جرعته حنظلاً ، يقطب بجبينه ، ويشيح بوجهه ، ويهز عطفيه ، ويولي ظهره ، فذلك عنده قول مرفوض ، ممجوج ، مدخول ، حتى ولو كان من إمام عالم عامل ، وإن هذا الصنف لو فتش الواحد منهم في ثنايا نفسه ، وحنايا ضميره ، لوجد هنالك دوافع معينة ، وأغراضاً مبيتة هي التي جعلته يرفض كل كلام أو شكر أو أمر بطاعة لهؤلاء ، أين أولئك من قوله تعالى : ﴿ **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ (١) .

يقول أحد السلف : « اللهم إني أعوذ بك مما ظننت أني أريد به وجهك وقد خالط بشاشة قلبي غير ذلك » .

بعض الناس لا يرضى أن يثني على أمير أو يشكر لوزير ، أو يكافئ جميلاً لهؤلاء أو يناصحهم بلطف ومحبة ، أو يدعو لهم بخير وهداية ،

---

(١) سورة المائدة : ٨ .

فإذا ما كان له مصلحة شخصية ، وحاجة ذاتية ، من زيادة لراتب ، أو طلب لمنحة أرض ، أو حصول على تصريح زواج ، دبّج أحلى عبارات الثناء ، ورصف أجمل كلمات الدعاء ، وأعلن الحب والولاء ، والشكر والوفاء ، وهذه بعينها الهجرة إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، وهي بعينها الطاعة والوفاء إذا أعطي من الدنيا ، والتمرد والنكران إذا لم يعط منها .

إن هذه الصورة ليست ظاهرة بينة ، ولا ممارسة ظاهرة ، بل هي أفكار قليل من قليل ، أما الأصل في الدعاة فهو الإخلاص والخير والفلاح .

٧ - لو لم تكن الطاعة والتعاون :

لك أن تنظر بعين العقل والإنصاف كيف يكون الحال لو صدف الشيخ وأمثاله عن الطاعة ، وتنكروا للتعاون ، وتجهموا للتعامل ، كم كان من الخير يحجب ، وكم كان من الدين يذهب ، وكم من أنهار للعلم تنضب ، ومن منافذ ومجالات للحق تُسلب .

إن هذه المعاملة الحسنة ، والمخالطة النافعة ، والمناصحة الدائمة أثمرت عطاءات محمودة ، وحسنات مشهودة ، وجسوراً للبذل والفضل ممدودة، وأحواضاً للعلم والمعرفة موروده .

٨ - اندفاع غير متريث :

إن الإنسان المسلم ليحزن غاية الحزن ، ويأسف كل الأسف لتصرفات يراها تقض المضاجع ، وتجلب المفاجع ، وتؤذي المسامع ؛ وذلك أنه حينما تبرق بوارق الأمل بشباب ملتزم ، وجيل مهتدٍ في بلدٍ من البلدان تؤمل أن يبدو أثرهم فيمن حولهم ، وأن ينفع الله بهم أقوامهم ، وأن يكونوا

سبباً في كسب القلوب ، وجمع الشعوب ، وأن يُجَمِّلوا صورة الإسلام في حياة الناس ، إذا بهم يثورون كالبراكين ، ويندفعون كالأعاصير ، فيستفزون الدول ، ويستغضبون السلاطين ، وينفرون المقبلين ، بتصرفات طائشة ، وأفعال مدمرة ، وأفكار محيّرة ، لقد نجحت كثير من الدعوات ، وفاز عدد من المنتسبين للدعوة ، نجحوا جميعاً في استعداء الدول والكيانات وذوي السلطة والزعامات ، وإن هذا الاندفاع الذي لم يستنر بنور الشرع ، ولم يهتدِ بهدى العقل ، قد جر الويلات والعناء على الإسلام والمسلمين في كثير من البلدان ، وعدد من الأقطار ، وقد يحتج أناس بأن الإنسان إذا التزم بإسلامه وتجمل بإيمانه فهو يصبح عدواً لا محالة ، ومعركته مع بعض الزعماء والكبراء واردة لا جدال في ذلك ، وهذا غير صحيح على إطلاقه وعلى كل حال ، والدليل أنه في قلب دول تحكم بزعماء ظالمين ، ويرأسها سلاطين جائرون ، وتمارس في بعضها حروب على الدين ، نرى هنالك طوائف على الحق ظاهرين ، وبالشرع ملتزمين ، وبواجب الدعوة قائمين ، ولم يضرهم ظلم الظالمين ، ولا حقد الحاقدين ، وهم لم يكلفو أنفسهم إلا وسعها ، ولم يتحملوا من الأمر ما لا يطيقون .

يقول الشيخ – رحمه الله – : « فالأسلوب الحسن من أعظم الوسائل لقبول الحق ، والأسلوب السيئ العنيف من أخطر الوسائل في رد الحق وعدم قبوله وإثارة القلاقل والظلم والعدوان والمضاربات . ويلحق بهذا الباب ما قد يفعله بعض الناس من المظاهرات التي قد تسبب شراً عظيماً على الدعاة ، فالمسيرات في الشوارع والهتافات والمظاهرات ليست هي الطريق للإصلاح والدعوة ، فالطريق الصحيح بالزيارة والمكاتبة التي هي

أحسن ، فتنصح الرئيس والأمير وشيخ القبيلة بهذا الطريق لا بالعنف والمظاهرة ، فالنبي ﷺ مكث في مكة ثلاث عشرة سنة لم يستعمل المظاهرات ولا المسيرات ولم يُهدد الناس بتخريب أموالهم واغتيالهم ، ولا شك أن هذا الأسلوب يضر الدعوة والدعاة ويمنع انتشارها ويحمل الرؤوساء والكبار على معاداتها ومضادتها بكل ممكن ، فهم يريدون الخير بهذا الأسلوب لكن يحصل به ضده ، فكون الداعي إلى الله يسلك مسلك الرسل وأتباعهم ولو طالت المدة أولى به من عمل يضر الدعوة ويضايقها أو يقضي عليها ولا حول ولا قوة إلا بالله »[١]، مع العلم أن كثيراً من المؤمنين والدعاة والمصلحين قد يُبغى عليهم بدون سبب ، وقد يظلمون ويحاربون من غير مبرر ، ولكن: ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ** ﴾[٢] ، ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ** ﴾[٣] ، ومن بغي عليه في نفسه أو ماله أو عرضه فقام دونه فمات فهو شهيد .

٩ - دعوى احتساب الأجر :

هنالك أناس وهم غالباً من شباب ساذج لا يحسبون على العلم ، ولا يمثلون الشرع ، بل هم مصابون بعدوى دهماء الناس ، ورعاع الخلق ، وأتباع الناعقين ، هؤلاء يحتسبون الأجر ، ويبحثون عن الثواب ، ولكن في دنيا السراب ، وذلك بتصيدهم للأخطاء ، وتنقيبهم عن العثرات ، وكشفهم للحرمات ، وإصدارها في بيانات ، ثم يتسابقون في توزيعها ، بل ويعتبرها بعضهم زاداً أسبوعياً يغذي به مريديه ، ويبشر به سامعيه ،

---

(١) الفتاوى ، جـ٦ ، ص٤١٨ .
(٢) سورة الشعراء : ٢٢٧ .
(٣) سورة إبراهيم : ٤٢ .

ويتحف به مسامريه ، فتدار فناجين القهوة ، وأكواب الشاي ، ويُتفكه معها بأعراض الأمراء ، وزلات الكبراء ، وكأن ذلك كسب عظيم ، وشيئ قويم ، أو فتح مبين ، ولك أن تسأل هؤلاء سؤالين اثنين ، الأول : هل هذا أمر يجيزه الشرع ويرضاه الرب؟! ، والثاني : أي شيء كسبه الدعاة أو حققته الدعوة من أمثال هذه التصرفات .

انظر إلى ابن باز قدوة العلماء ، وحلية الفقهاء في هذا العصر ، هل يخطر في بالك أن يسمح في مجلسه بعرض يُلاك ، أو حرمة تنتهك لأي مسلم على الأرض أميراً أم فقيراً ، وزيراً أم صغيراً ، هل يخطر في بالك أن يحمل منشوراً أو يوزع بياناً في تهجم على أحد أو تنقص لبشر ، فضلاً عن عورات مستورة ، وعيوب محظورة .

إن هذا الشيخ الذي قبلت فتواه في تربية اللحية ، وتقصير الثوب ، ووضع اليدين على الصدر ، هو ذاته صاحب الفتاوى المؤكدة ، والآراء المسددة في هذه الأمور ، فلماذا تأخذ بعضاً وتترك بعضاً؟!! .

يقول – رحمه الله – عن النشرات التي توزع تحمل تجريحاً للولاة ، وعيوباً للرعاة : « نصيحتي لجميع المسلمين أن لا يقرؤوها ولا ينظروا إلها ، وأن مصدري النشرات أرادوا بذلك التفرقة بين المسلمين ، والتفرقة بين ولي الأمر والرعية ، وإثارة الفتنة والخروج على ولي الأمر ، وهذا أمر عظيم وبلاء كبير »[١] .

ويقول – رحمه الله – : « وأوصي بالحذر من دعاة الهدم ، من دعاة الضلالة ، فيجب الحذر منهم والتحذير ، يجب الحذر والتحذير من دعاة

---

(١) من محاضرة للشيخ بعنوان أخلاق المؤمنين في ٢٤/٥/١٤١٥ هـ .

الضلالة ، مثل هؤلاء الذين يرسلون دعواتهم الضالة المضللة من بلاد الكفرة ومن يتعاون معهم على التخريب والفساد وتضليل الناس ، هذا شر عظيم وفساد كبير .

فيجب القضاء على هذه النشرات ، والتحذير منها ، وإتلافها مهما كانت ، فالمصلح : هو الذي يدعو إلى الله ، يدعو إلى التمسك بالدين، يدعو إلى التناصح ، يدعو إلى التعاون مع ولاة الأمور في الخير ، يدعو لهم بالتوفيق والهداية ، وأن الله يعينهم على الخير ، وأن الله يهديهم ويصلح لهم البطانة ، وأن الله يوفقهم لإقامة الحق.

هكذا المصلح ، هكذا الداعي ، يدعو لهم بالخير ، ويشكرهم على الخير ، يشكرهم على ما بذلوه من الخير ، يدعوهم إلى الاستقامة ، وإلى صلاح البطانة ، والحذر من أهل السوء ، ويدعو إلى إزالة المنكرات ، يدعو إلى إزالتها بالكلام الطيب ، والأسلوب الحسن ، والنصيحة لولاة الأمور والعلماء ، مع الدعاء لهم بالتوفيق ، يقول لهم : تواصوا ، تناصحوا في ذلك ، أرشدوا الناس جزاكم الله خيراً ، وفقكم الله ، كما قال جل وعلا : ﴿ **وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ »[١] .

ويقول – رحمه الله – : « والواجب على المسلم أن يبتعد عن أسباب الفتنة وشق العصا والفتن بين المسلمين والاختلاف بين الراعي والرعية ، وأن يكون مجمعاً لا مفرقاً ولا فاتناً ، بل يسعى للم الشمل مع النصيحة والتوجيه والكلام الطيب من دون شق العصا ، ومن دون عبارات تسبب

---

(١) الفتاوى ، جـ٨ ، ص٤١٥ .

الشر والفساد ، وأساليب تفتح باب الشر والعداء والانقسام »[١]

١٠ - عدم التواصل والزيارة والقرب :

إن بعض الناس يريد للملوك والولاة وأولي الأمر أن تهبط عليهم الهداية من السماء ، أو تنتقل إليهم النصيحة مع الهواء ، دون مخالطة لهم وحرص عليهم وقرب منهم ، إن المرء يعيش سنوات طويلة مع أهله وذويه ، وقد لا يستطيع التأثير فيهم ، أو تقويم اعوجاجهم ، وهو معهم ليلاً ونهاراً ، صباحاً ومساء ، فكيف بأناس لا يصلهم ناصح ، ولا يزورهم محب ، ولا يتقرب إليهم داعية ، ولا يتلطف بهم واعظ .

يقول الدكتور عبد الله الحوشاني في كتابه عن منهج ابن تيمية في الدعوة متحدثاً عن رأيه - رحمه الله - في صلة الدعاة والعلماء بالحكام :

« كما أنه يرى من واجب العلماء والدعاة وأهل الغيرة على الدين أن يصلوا جسورهم مع ولاة الأمور ولا ينقطعوا عنهم ، ويكون اتصالهم بهم بقدر ما يفيدونهم في فهم الإسلام ، ويستفيدون منهم في نصرة الإسلام، ولا تتجاوز العلاقة هذا الهدف العظيم ، والذي أساء علاقة العلماء بالحكام أقوام فعلوا ذلك من أجل ذواتهم ومصالحهم أو شيئ من هذا وهذا .

ولم ير ابن تيمية مسوغاً لا شرعياً ولا عقلياً ولا اجتماعياً ولا عرفياً لقطع جسور العلماء والدعاة مع الولاة ، بل إنه يرى ذلك من الأضرار العظيمة في الدين والدنيا ؛ لأنه لا يزيد الحكام إلا جهلاً بالدين ، وفهماً

---

(١) الفتاوى ، جـ٨ ، ص : ٤١٨ .

خاطئاً لأمور الناس ، لوجود قنوات غير أمينة لديهم ، إضافة إلى ما في ذلك من خلو جوهم الفكري والاجتماعي لغير المخلصين ، ولا يزيد العلماء والدعاة إلا جهلاً بالسياسة وأحوال الولاة ، مما يجعل الدعاة والمصلحين غير قادرين لرسم سياسة للتعامل معهم ودعوتهم وإصلاح أوضاعهم .

ومما يثير العجب إعراض الدعاة والمصلحين عن الاهتمام بعقول وقلوب الولاة ، وهم أصحاب السلطة والأمر والنهي في البلاد ، وهم القائمون على تنفيذ الشريعة ، وهم الذين يقيمون الجهاد ، ويقيمون الحدود ، فلا يصح ذلك إلا بهم ، وهم الذين يصدرون المراسيم إلى نواحي الدولة الإسلامية ، وهم عموماً المتصرفون في بلاد المسلمين التصرف الأعلى في إدارة شؤونها .

أيصح أن يترك هؤلاء وكل ذلك من الأمور العظيمة من مصالح الدين والدنيا بأيديهم؟ وتخلو ساحتهم من أهل العلم والصلاح لتبقى لأهل الجهل والفجور والأغراض الشخصية؟ ويمكن أن يقال : البعض له أن يفعل ذلك ، لكن أن يتخذ منهجاً فهذا مما لا يجوز ، وفيه من الأضرار ما أشرنا إليه ، وما لم نشر إليه أكثر ، ومن أجل ذلك فإن ابن تيمية كان على صلة كبيرة بالولاة والأمراء ، بل إن بعض الأمراء قيل إنهم من تلاميذه أو على الأقل من المحبين له المعجبين به ، ومنهم : كتبغا المنصوري الذي كان حاكم دمشق ، وأرغون الناصري الذي تولى منصب نائب السلطان في مصر ، ووالي حلب ، والأمير سلار ، والأمير حسام الدين مهنا بن عيسى ، والسلطان الناصر محمد بن قلاوون .

ولكن ابن تيمية يفرق بين صلة عامة الناس وصلة خاصتهم وعلمائهم

بالحكام ، فالدعاة والعلماء في نظره يجب أن تكون صلتهم خالصة لله عز وجل لا يشوبها شائبة من الهوى والمنفعة في مال أو جاه ، وذلك لأن من عادة السلاطين أن يحبوا استمالة هؤلاء إليهم إما بمال أو منصب أو أي نوع من أنواع الترغيب والترهيب .

وابن تيمية كان على وعي بذلك ، مما جعله لم يقبل منهم مالاً ولا كساء ولا منصباً ، مع أنهم عرضوا عليه كل ذلك وغيره .

ويرى أن هذا هو نهج الدعاة والعلماء مع الحكام حتى يتحققوا أن دافع الدعاة والعلماء هو الدين وحده ، وأنهم ليس لهم مطمح فيما يخافون عليه من دنياهم ومناصبهم ، وحتى لا يكون لهم عليهم منة وفضل . يقول رحمه الله : « قال القائل : ما وضعت يدي في قصعة أحد إلا ذللت له! ولا ريب أن من نصرك ورزقك كان له سلطان عليك ، فالمؤمن يريد ألا يكون عليه سلطان إلا لله ولرسوله ، ولمن أطاع الله ورسوله »[١] .

ومع هذا فهو كعادته لا يغلو ، فقدم رأياً معتدلاً في أعطيات السلاطين يتوجه به إلى عموم الناس ، ويستمد هذا الرأي من حديث الرسول ﷺ : « خذ العطاء ما كان عطاء ، فإذا كان عوضاً عن دين أحدكم فلا يأخذه »[٢] .

« .. قال أحمد : أجرة التعليم خير من جوائز السلطان ، وجوائز السلطان خير من صلة الإخوان »[٣] .

---

(١) الفتاوى (١١/٩٨) .
(٢) حديث ضعيف ، مجمع الزوائد (٥/٢٣٨) .
(٣) الفتاوى (٣٠/١٩٣) .

العالم الذي نريد :

السمع والطاعة لولاة الأمور ، والحث على ضرورة التعامل والتعاون معهم لا يعني ذلك أن يكون العالم مفترشاً لأبواب السلاطين ، متمسحاً بأعتاب الزعماء ، وأن تكون علاقته وتعامله لأجل أغراض دنيوية ، ومطامح شخصية .

إن ذلك لا يليق من الإنسان العامي فكيف بعلماء الأمة ، وحملة الشريعة؟ يجب أن يصونوا أنفسهم ، ويحفظوا مواقفهم ، وتكون مخالطتهم للولاة لأهداف سامية ، وأغراض صافية ، ومقاصد عالية .

إن تمييع الدين ، وطمس الهوية ، وإصدار الفتاوى الجاهزة ، من بعض حملة العلم في بعض البلدان لهو داء كبير ، وشر مستطير . إن القرآن والسنة والعلم بهما يجب أن يسمو بالمرء إلى قمم عزة النفس ، وأعالي صروح الكرامة .

يجب أن يتحرق العالم أسىً ، ويتمزق ألماً إذا رأى ما يخالف الشرع، ويغضب الرب ، ويجهد في دفعه ودحضه بحسب ما يستطيع ، وكذلك فهو يفرح ويسر بما يرى من الإيجابيات ويعلن شكرها ، ويسعى لتثميرها ، أما الذي لا يأمر بالمعروف ، ولا ينهى عن المنكر ، وهو يستطيع ذلك دون أن يترتب عليه مضرة ، ولكن تركه مجاملة أو مداهنة، فهو لم ينصح لله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم .

والكارثة الكبرى أن يكون العالم شماعة تعلق عليها التسويغات المريبة، والتصرفات الغريبة ، والمخالفات الرهيبة . إن هذا من الصنف الغاش للولاة ، والخادع للرعية ، والخائن للأمانة .

إن حب ولاة الأمور ، والحرص عليهم والرحمة بهم ، والصدق معهم هو في دلالتهم إلى الخير ، وأمرهم بالمعروف ، وتحذيرهم من سبل الردى ، وفق ما قرره الشرع ، وبينه العلماء ، والدعاء لهم سراً وجهاراً ، ليلاً ونهاراً ، نسأل الله أن يوفق علماء المسلمين وأمراءهم لما فيه الخير والصلاح ، والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة .

يقولون لي فيك انقباضٌ وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزّةُ النفس أُكرما
ولم أقض حق العلم إن كنتُ كلما ... بدا مطمع صيّرته ليَ سُلما
وما زلت منحازاً بعرضيَ جانباً ... عن الذل أعتدُّ الصيانة مغنما
إذا قيل : هذا منهل قلت : قد أرى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما
أنزهها عن بعض ما لا يشينها ... مخافة أقوال العدا : فيم أو لما؟
فَأُصبِح عن عيب اللئيم مسلماً ... وقد رحت في نفس الكريم معظما
وكم طالب رقياً بنعماه لم يصل ... إليه وإن كان الرئيس المعظما
وكم نعمة كانت على الحر نقمة ... وكم مغنم يعتده الحر مغرما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت لكن لأُخْدَما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظّموه في النفوس لعظّما